نبيل فاروق

الستار الأسود

الكتاب الثاني

مجموعة قصصية

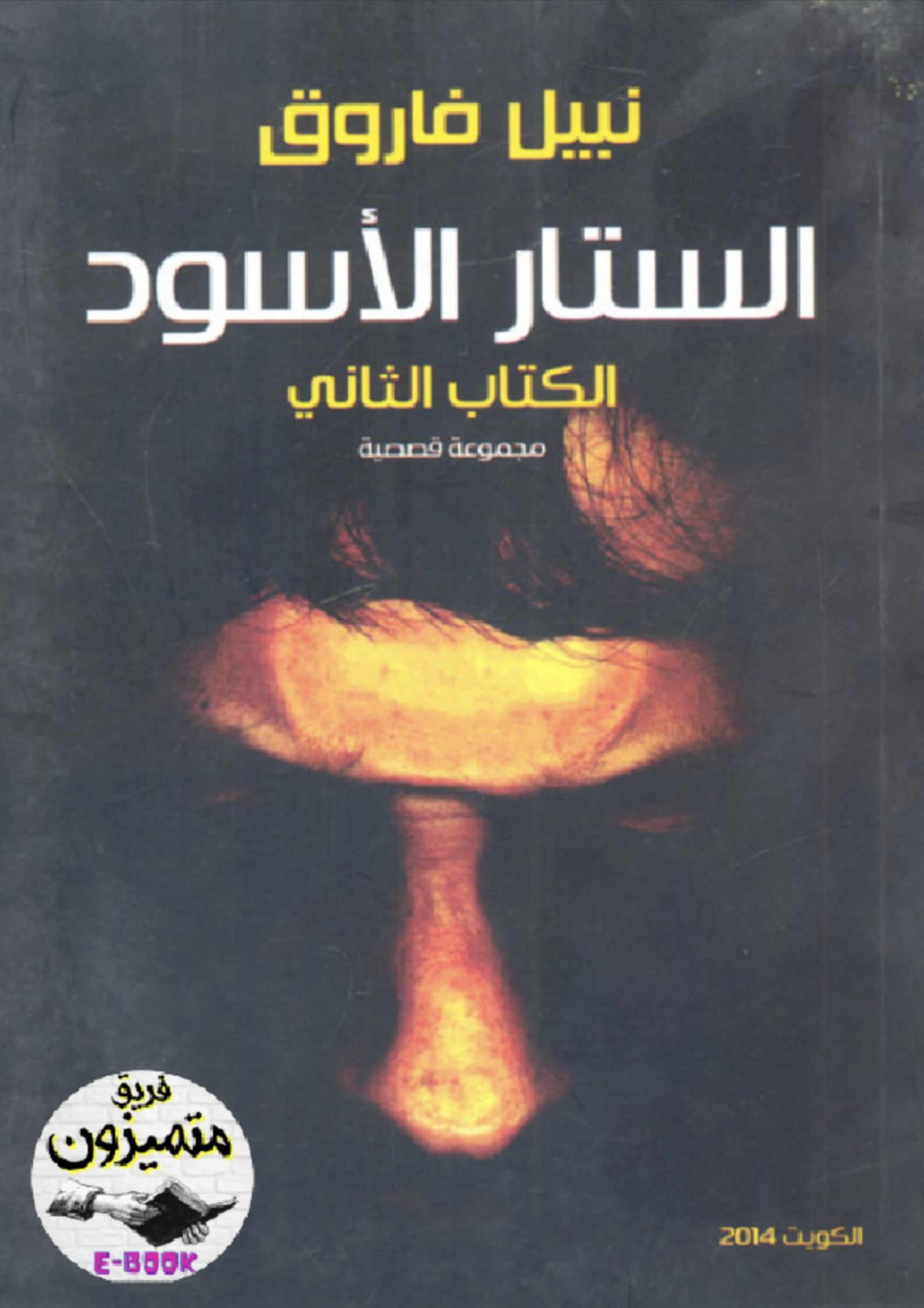

فريق متميزون
E-BOOK

الكويت 2014

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل والتجميع لسلسة

الستار الأسود

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل سلسلة الستار الأسود المنشورة بسلسلة كوكتيل ٢٠٠٠ الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

من روائع د. نبيل فاروق

سلسلة الستار الأسود

(الكتاب الثاني)

عالمنا الذي نعرفه محدود..

ليس بحدوده، ولكن بحدود قدراتنا نحن..

محدود، بما نعرفه عنه..

وغير محدود، بما نكشفه من أسراره وخباياه في كل يوم..

بل في كل لحظة..

عالمنا نراه بأعيننا، ونتعامل معه بحواسنا ومعارفنا..

وعلى الرغم من كل ما نعرفه، مازالت معارفنا عنه محدودة..

فما نراه ونسمعه ونلمسه، ليس كل عالمنا..

هناك ستار، يفصل بين ما نعرفه الآن، وما سوف حتما نعرفه غدا..

ودعونا نبذل محاولة محدودة للعبور خلف ذلك الستار، الذي يحجب عنا الكثير والكثير من أسرار وخبايا عالمنا..

الستار الأسود.

د. نبيل فاروق

العمالقة..

كان الظلام حالكا على نحو يخالف المألوف، مع غياب القمر والسحب الكثيفة التي تملأ السماء في واحدة من ليالي الشتاء..

وعلى الرغم من ضوء مصباحي السيارة، لم تكن الرؤية تتيح له المضي قدما في طريقه..

فعلى يمينه غيط كبير بدأت نباتاته في النمو منذ أيام..

وعلى يساره تلك الترعة الواسعة التي تمتد من فرع النيل وحتى نهاية القرية..

سار على مهل وهو يشعر بالسخط لاضطراره إلى السفر ليلا، بسبب تلك التطورات في شركته في القاهرة..

حاول تشغيل مذياع السيارة القديمة لكنه لم يستجِب، فمط شفتيه في ضيق وجازف بزيادة السرعة على الرغم من وعورة الطريق، حتى يبلغ الطريق الرئيسي في أسرع وقت..

ومن بعيد لاحت له الأضواء، مما جعله يزيد من سرعته أكثر وكله لهفة على بلوغ الطريق، و..

وفجأة، انتبه إلى أمر عجيب..

تلك لم تكن أضواء الطريق..

إنها أضواء مركبة ما تتجه نحوه مباشرة في سرعة تفوق المألوف..

ضغط فرامل سيارته قليلا، وهو يتساءل عن ذلك السائق المجنون الذي ينطلق بهذه السرعة على طريق كهذا!

ولكن المركبة كانت تقترب بسرعة تفوق سرعة أي مركبة أخرى رآها في حياته..

ثم اتسعت عيناه في شدة..

وعرف فجأة كيف تنطلق بهذه السرعة..

إنها لم تكن تنطلق على الطريق الوعر..

بل فوقه..

ولم يكن الضوء ينبعث من مصابيحها..

بل منها كلها..

وبكل رعبه ضغط فرامل سيارته ثم حاول التراجع بها إلى الخلف..

ولكن محرك السيارة لم يستجِب..

بل كلها لم تستجِب..

كل شيء فيها توقف فجأة، وكأنما انسحبت كل طاقتها دفعة واحدة..

وتلك المركبة العجيبة في سرعة..

وتقترب..

وتقترب..

فتح باب السيارة في فزع وانطلق محاولا الفرار منها، في نفس اللحظة التي بلغته فيها تلك المركبة التي بدت أشبه بقرص كامل الاستدارة تنبعث منه الأضواء من كل مكان..

حدق فيها لحظة في ذهول واستسلام قبل أن يسطع منها ضوء مبهر في وجهه، و..

فقد الوعي..

لم يدرِ كم ظل فاقدا للوعي، ولكنه عندما أفاق كانت الشمس في كبد السماء، وكان راقدا وسط أعشاب طويلة عملاقة لم ير مثلها من قبل..

نهض في رعب، يتساءل أين هو..

لم يكن يدري أين هو، ولا أين نقله ذلك الجسم المستدير، فتلفت حوله في ذعر، إلا أن تلك الأعشاب العملاقة كانت تملأ كل المكان، وتحجب عنه الرؤية تماما..

توقف في مكانه بضع لحظات متسائلا عما حدث، ومحاولا تحديد المسار الذي ينبغي له أن يتخذه..

ثم شعر بتلك الحركة وسط الأعشاب العملاقة..

ارتجف جسده وهو يتطلع إلى حيث تتحرك الأعشاب قبل أن يبرز أمامه فجأة ذلك الشيء..

وحش ضخم في حجم الأسد تقريبا، ولكن له تكوين عجيب..

رأس في حجم كرة السلة، وجسم صلب في حجم سيارة صغيرة، وستة أرجل مفصلية مخيفة، تبرز منها إبر ضخمة تشبه الشعر..

ولقد تراجع في رعب مُحدقا في ذلك الوحش الذي توقف بدوره، وبدا وكأنه يتطلع إليه ويحرك شيئا ما تجاهه..

وصرخ خليل..

صرخ..

وصرخ..

وصرخ..

ومع صرخاته راح يتراجع..

ولكن الوحش لم يطارده..

فقط اكتفى بمتابعته في بلادة حتى اختفى خلف بعض الأعشاب العملاقة، ثم مضى الوحش في طريقه في هدوء..

تنفس هو الصعداء عندما ابتعد الوحش، وعاد يتساءل: أين هو بالضبط؟

بدأ يتحرك وسط الأعشاب العملاقة بلا هدى، وهو يطرح على نفسه عشرات الأسئلة..

ما ذلك الجسم الذي هاجمه أمس؟

أهو أحد تلك الأطباق الطائرة التي يقرأ عنها بين حين وآخر؟

ولو أنه كذلك فهل اختطفه وذهب به إلى كوكبه في يوم وليلة؟

هذا لو أنهم لم يفقدوه وعيه لعدة أسابيع قبل نقله إلى كوكب العمالقة هذا؟!

واصل سيره وعقله يبحث عن ألف جواب وجواب..

ولكن تلك الأعشاب كانت عملاقة بحق..

وتنتشر على نطاق واسع للغاية..

وعلى الرغم من أنه فقد وعيه في شتاء كوكبه، فقد كانت أشعة شمس هذا الكوكب حامية بحق..

ولم يكن هناك ما يوحي بأنه سيصل إلى مكان آخر..

ترى، هل ينتشر هذا العشب العملاق في الكوكب كله؟!

ثم أن تلك المركبة الغريبة لم تكن كبيرة..

لقد كانت في حجم سيارته تقريبا..

وهذا الكوكب يوحي بأن سكانه من العمالقة..

فكيف يتناسب هذا وذاك؟

كيف؟

انتبه فجأة إلى أن منطقة العشب لم تعد كثيفة كما كانت..

وهذا يعني أنه يقترب من شيء ما..

شيء يجهل ماهيته..

توقف لحظات مجهدا، التقط نفسا عميقا وهو ينحني ليستند بكفيه على ركبتيه لبضع لحظات قبل أن يعاود سيره..

ولقد كان على حق في استنتاجه..

كثافة العشب العملاق كانت تقل كلما سار..

ومن بعيد بدا له ما يشبه بناية ضخمة ذات طراز غير مألوف في عالمه..

وعلى الرغم من جهله بطبيعة البناء أو طبيعة قاطنيه، لكنه حث الخطى للخروج من منطقة الأعشاب العملاقة، أيًا كانت النتائج..

وعلى الرغم من أن ذلك الوحش قد تجاهله تماما، فإنه كان يخشى عودته..

وبشدة..

وانخفضت كثافة الأعشاب العملاقة كثيرا، وإن توزعت بالقرب من نهايتها بحيرات مائية متوسطة توحي بأن التضاريس سرعان ما تتغير فور خروجه من بينها..

وراحت - مع اقترابه- ملامح ذلك البناء الهائل تتضح..

وتتضح..

و..

تسمر في مكانه فجأة عندما بلغ نهاية منطقة الأعشاب العملاقة، وتوقف أمام مرتفع كبير..

ذلك الشيء الهائل الذي رآه لم يكن بناية..

بل كان سيارة..

وبالتحديد.. كان سيارته..

إنه يعرفها جيدا، مهما بلغت ضخامتها..

رباه! هذا يعني أنه ليس على كوكب آخر..

وتلك المركبة لم تختطفه..

إنه هنا، على كوكب الأرض..

وتلك الأعشاب ليست عملاقة..

إنها تلك الأعشاب الصغيرة في الحقل الذي سقط فيه..

هذا يعني أنه ليس في كوكب عمالقة..

هو الذي صار قزما..

يا إلهي!

أصابته الفكرة وأصابه الكشف بفزع ما بعده فزع..

ما الذي فعلته به تلك المركبة؟!

أي شعاع أطلقته عليه؟!

ولماذا؟!

راح جسده يرتجف في شدة ورعبه يتصاعد وهو يحاول تسلق حافة الغيط، والتي بدت بحجمه هذا وكأنها تبة عالية..

ماذا سيفعل؟

وهل يمكن أن يستعيد حجمه؟

هل؟

كان يبذل جهدا كبيرا لتسلق ما كان يتجاوزه بخطوة واحدة عندما كان في حجمه الأصلي، قبل أن يصيبه ما أصابه..

لم تكن لديه خطة واضحة لما ينبغي أن يفعله بعد أن يبلغ سيارته، ولكنها كانت تمثل له الشعور الوحيد بالأمان..

واستعاد عقله كل ما مر به..

ذلك الوحش الذي التقى به بين الأعشاب لم يكن وحشا..

الآن فقط انتبه إلى ماهيته..

لقد كان مجرد خنفساء حقل عادية..

خنفساء بدت له -بحجمه الضئيل هذا- أشبه بوحش عملاق..

لم يكن قد بلغ قمة المنحدر بعد عندما شعر بتلك الحركة من خلفه، فالتفت إليها، و..

وتجمدت الدماء في عروقه..

هذه المرة، كان ما أتى خلفه ليس مجرد خنفساء..

بل كان وحشا..

وحشا حقيقيا..

وبالذات في حجمه هذا..

لقد كان فأرا..

فأر غيط ضخم يهز شواربه وهو يتطلع إليه في اهتمام..

ثم يقترب منه..

صرخ بكل رعب الدنيا محاولا أن يتراجع أمام ذلك الكائن المفترس الذي طالما تباهى بقدرته على اصطياده..

الآن انعكس الأمر..

لم يعد هو الصياد..

لقد صار الفريسة..

فريسة لكائن لا يرحم..

الكائن تراجع خطوة، التمعت خلالها أسنانه الحادة..

ثم وثب نحوه..

وصرخ صرخة قوية عنيفة، و..

استيقظ..

"حمدا لله على سلامتك".

سمع طبيب القرية يقولها فور استعادته وعيه.. حدق فيه ذاهلا قبل أن يهتف:

- أأنا حي؟!

ابتسم الطبيب، وهو يقول:

- من حسن الحظ.. لقد عثروا عليك فاقدا للوعي في غيط الحاج نجيب وحملوك إلى هنا.

هتف غير مصدق أنه حي:

- والفأر.

ضحك الطبيب، وهو يقول:

- كيف علمت بأمره؟! إنه فأر غيط كان يقترب منك عندما عثروا عليك، ولكنه فر فور رؤيتهم.

وغمز بعينه في مرح مردفا:

- من حسن الحظ أنه لم يفترسك.. أنت تعلم ما يفعله فئران الغيط عندما يعثرون على فريسة لا تقاوم.

قالها وأطلق ضحكة طويلة، في حين انعقد حاجبا خليل في شدة وهو يتساءل: أكان هذا كله حلما، أم أن ركاب تلك المركبة العجيبة قد أعادوه إلى حجمه في اللحظة المناسبة؟

وظل تساؤله هذا كامنا في أعماقه، لم يصرح به أبدا..

ولكنه ظل أيضا بلا جواب..

على الإطلاق.

☆ ☆ ☆ ☆

القمر..

ارتفعت أبواق سيارات الشرطة والإسعاف وهي تشق طريقها عبر شارع الهرم، أشهر شوارع محافظة الجيزة، في اتجاه منطقة الأهرامات..

وهناك عند منطقة أهرامات الجيزة كان أي شخص يمكنه أن يدرك أن هناك حدثا غير طبيعي دفع الشرطة إلى منع الجميع من دخول المنطقة، حتى السائحين الذين جاءوا من أقاصي الأرض لرؤية ذلك الأثر الفرعوني القديم..

ومع عبور سيارات الشرطة والإسعاف إلى تلك المنطقة استقبلها أحد رجال شرطة السياحة وهو يقول في انفعال:

- هناك.. لقد ظهر هناك.. نحن أحطنا منطقة ظهور، ومنعنا الاقتراب منها لحين وصولكم.

أجابه عميد الشرطة الذي صحب السيارات محاولا تهدئته:

- تمالك نفسك يا هذا، وقصَّ عليَّ ما حدث بالتفصيل.

بدأ الاثنان يتحركان بالفعل، وضابط شرطة يقول في انفعال:

- كل شيء كان يسير على ما يرام منذ الصباح، وكان هناك وفد سياحي يلتقط بعض الصور لمنطقة الأهرامات عندما سمعنا دويا مكتوما، ونشأ وسطهم ما يشبه إعصارا صغيرا فتفرَّقوا فزعين، وعندما هرعت إليهم لتفقد الأمر رأيته يظهر في الهواء فجأة كما لو أنه قد نشأ من العدم، على ارتفاع ستة أمتار من الرمال.

ارتفع حاجبا العميد، وهو يسأله في توتر:

- هل رأيت هذا بنفسك؟

كان ضابط شرطة السياحة يلهث من فرط الانفعال وهو يجيب:

- لو لم أرَه بنفسي لما صدَّقته يا سيادة العميد.

هزَّ العميد رأسه، في دهشة كبيرة، وهما يقتربان من منطقة الحدث، وسأله في توتر:

- وماذا حدث بعد ظهوره؟!

أجابه في سرعة:

- سقط على الرمال.

التفت إليه العميد في صرامة، فاستدرك على الفور:

- وفقد الوعي.

بدا فريق من رجال الشرطة من بعيد يصنعون ما يشبه الدائرة، ويصوبوَّن أسلحتهم نحو جسم ما في مركزها، فتساءل العميد وهو يحث الخطى:

- وكيف يبدو؟!

لوَّح ضابط شرطة السياحة بيديه وهو يجيب:

- مثلنا تماما.. رجل عادي في ثياب عادية.. لا يميزَّه سوى سقوطه من الهواء بلا مقدمات.

كانا قد بلغا منطقة الحدث بالفعل، فحَّدق العميد في رجل عادي يرتدي قميصا وسروالا بسيطين، سقط فاقدا للوعي على الرمال وعلى مقربة منه منظار طبي بسيط، من الواضح أنه سقط على وجهه مع ارتطامه بالأرض، واعتدل العميد وهو يلتقط نفسا عميقا قبل أن يقول:

- فلينقلوه إلى سيارة إسعاف فورا.

سأله الضابط بكل دهشته:

- بهذه البساطة؟!

أجابه بكل صرامة:

- نعم.. بهذه البساطة.

ولكن الأمر لم يكن بسيطا في الواقع، فهناك في إحدى قاعات مستشفى كبير يطل على نيل القاهرة، التفت فريق من العلماء والأطباء ورجال الأمن حول ذلك الشخص، يفحصونه بكل دقة واهتمام، قبل أن يقول كبير الأطباء:

- إنها غيبوبة عادية.. الرمال خففَّت كثيرا من صدمة السقوط، فلم يصب بأي كسور أو مضاعفات.

تساءل العميد في خشونة لم يتعمَّدها:

- وماذا عن ظهوره المفاجئ في الهواء؟

هزَّ كبير الأطباء كتفيه وأشار بيده إلى رئيس فريق العلماء، الذي غمغم في خفوت متوتر:

- ما أن يستعيد وعيه، حتى نسمع القصة من بين شفتيه..

ولم يستغرق هذا وقتا طويلا..

فلم تمضِ نصف الساعة حتى كان ذلك الرجل يستعيد وعيه ويحدَّق في المحيطين به، متسائلا في اضطراب:

- أين أنا؟!

أجابه عميد الشرطة في خشونة تعمَّدها هذه المرة:

- في مستشفى قصر العيني.

اعتدل الرجل جالسا على فراشه، وتساءل بكل الاهتمام:

- في أي عام؟!

انعقد حاجبا رئيس فريق العلماء، في حين قال العميد في حدة:

- أهذا وقت للمزاح يا هذا؟!

حمل صوت الرجل ضراعته، وهو يقول:

- أرجوك أخبرني.. في أي عام نحن؟!

تبادل الرجال نظرة دهشة، في حين اندفع رئيس فريق العلماء يجيب:

- عام ألفان وثلاثة عشر يا رجل.

تهلَّلت أسارير الرجل فجأة، وهو يهتف:

- عام ألفان وثلاثة عشر؟! حقا؟!

ثم انفجر ضاحكا في سعادة غامرة قبل أن يضيف:

- إذن فقد فعلتها.. لقد فعلتها.

تبادل العلماء والأطباء نظرة حائرة متوترة، في حين بدا صوت العميد أكثر خشونة وهو يقول في حدة:

- فعلت ماذا يا رجل؟!

هتف الرجل بكل سعادته:

- أثبت نظرية أينشتين.. سافرت عبر الزمن.

تفجَّرت الدهشة في وجوه الجميع، فيما عدا رئيس فريق العلماء الذي ازداد انعقاد حاجبيه في شدة، والعميد الذي قال في غضب عصبي:

- أي سخافة هذه؟!

كان الرجل شديد الانفعال والسعادة معا، وهو يقول:

- سخافة؟! هل تصف أعظم إنجاز في التاريخ بأنه سخافة.. لقد نجحت فيما أكد الجميع أنه مستحيل! قهرت حاجز الزمن وعبرته.. وإلى الاتجاه الذي رفض الكل الإيمان به.

همّ العميد بقول آخر غاضب، لولا أن اندفع رئيس فريق العلماء يسأل الرجل في انفعال:

- من أي عام أتيت يا هذا؟!

بدا السؤال سخيفا لمعظم الموجودين، إلا أن الرجل أجاب في سرعة:

- من عام ألفين وتسعة وعشرين..

مرة أخرى تفجَّرت الدهشة في وجوه الجميع على نحو أكثر عنفا، وتراجع عميد الشرطة في حركة حادة، في حين واصل الرجل بكل انفعاله وحماسه:

- لقد ابتكرت أوَّل آلة زمن حقيقية تستطيع نقل البشر إلى الماضي، وليس إلى المستقبل وحده مثل الآلة القديمة.

غمغم رئيس فريق العلماء مبهورا:

- أهنالك آلة قديمة؟!

هتف الرجل في حماس:

- بالتأكيد.

ثم استدرك في سرعة:

- بالنسبة إلى زمني بالطبع.

هتف عميد الشرطة في حدة:

- هل تصدَّق هذه السخافة؟!

التفت إليه رئيس فريق العلماء قائلا في صرامة:

- ألديك تفسير آخر لظهوره على ارتفاع عشرة أمتار في الهواء يا سيادة العميد.

انعقد حاجبا العميد وهو يقول في عصبية:

- هذا لا يعني أن أصدَّق روايته.

رمقه رئيس فريق العلماء بنظرة قاسية، ثم التفت إلى الموجودين قائلا في حزم:

- أقترح أن يتم إخلاء الحجرة مؤقتا أيها السادة، إلا مني ومن سيادة العميد؛ فبعض ما يدور هنا قد يندرج تحت بند الأمن القومي.

لم يكن أحدهم يرغب في قطع القصة عند هذه النقطة بالغة التشويق، إلا أن عميد الشرطة لم يعترض، فخرجوا يجرّون أقدامهم جرا، وأغلق رئيس فريق العلماء الباب خلفهم قبل أن يلتفت إلى الرجل، قائلا:

- ما موقعك في زمنك بالضبط يا هذا؟!

أشار بيده، مجيبا في حماس:

- أنا الدكتور أشرف عوض، أستاذ الفيزياء التجريبية في جامعة القاهرة، والحاصل على أرفع وسام علمي في مصر عن أبحاثي في مجال الطاقة الموَّحدة.

بقي عميد الشرطة صامتا معقود الحاجبين في شدة، في حين جذب رئيس فريق العلماء مقعدا، وجلس على مقربة من الدكتور أشرف وهو يسأله في اهتمام:

- هل تطوَّرت العلوم في مصر إلى هذا الحد في زمنك؟!

أجابه في حماس:

- مصر كلها تطوَّرت بعد الثورة، والعلم صارت له قيمة كبيرة فيها، وساعد على تطوير اقتصادها وإنشاء صناعات جديدة.. لدينا ثلاثة علماء فازوا بجائزة نوبل..

وابتسم ابتسامة عريضة وهو يجيب:

- وأظنني سأصبح رابعهم.

مال رئيس فريق العلماء عليه يسأله:

- أتعني أنه لديك وسيلة للعودة إلى زمنك؟

امتقع وجه الدكتور أشرف وهو يتراجع مغمغما في اضطراب:

- وسيلة للعودة؟!

بدا مذعورا للحظات، ثم لم يلبث أن قال في حزم:

- ولكنني أستطيع صنعها بالتأكيد.

ثم أمسك ذراع رئيس فريق العلماء مستطردا في انفعال:

- أنت عالم مثلي وتستطيع معاونتي على هذا.

هزَّ رئيس فريق العلماء كتفيه مجيبا في خفوت:

- لو أنه لدينا في عصرنا هذا التكنولوجيا التي تسمح بذلك.

عاد وجه الدكتور أشرف يمتقع وغمغم في مرارة:

- لا.. أمامكم سنوات قبل بلوغها.

ثم استعاد تماسكه وهو يضيف في توتر:

- ولكن هذا لا يهم.. زمنكم سيسَّجل وصولي، وهذا سيثبت في زمني أنني قد نجحت.

انعقد حاجبا رئيس فريق العلماء لحظات قبل أن يقول في بطء:

- ولكن هذا يتعارض تماما مع فلسفة السفر عبر الزمن.

تراجع الدكتور أشرف ووجهه يمتقع ثانية، في حين تابع رئيس فريق العلماء بنفس البطء والاهتمام:

- فلو سجَّل زمننا وصولك ستعلم به الأجيال القادمة قبل حتى أن تبدأ تجاربك، وسيعني هذا أنك لن تقوم برحلتك إلى الماضي ولن تعود إلى زمننا، وستدور دائرة من المستحيلات، هي التي جعلت العلماء يوقنون من أن السفر عبر الزمن إلى الماضي مستحيل.

شحب وجه الدكتور أشرف وهو يغمغم:

- ولكنني فعلتها.

عاد رئيس فريق العلماء يهزَّ كتفيه قائلا:

- وهذا ما يدهشني حقا!

تحَّرك عميد الشرطة حتى صار أمام النافذة وهو يقول في صرامة:

- معذرة أيها السيدان، ولكنني لا أفهم ولا أصدق حرفا واحدا مما تقولاه!

التفت إليه الدكتور أشرف، وهو يقول في ضيق عصبي:

- هذا لأنك رجل شرطة، ومن الطبيعي ألاَّ..

بتر عبارته بغتة وهو يحدّق في شيء ما خلف العميد، فاستدار هذا الأخير مع رئيس فريق العلماء يبحثان عما يحدّق فيه، ولكنهما لم يريا سوى القمر الذي بدا بدرا من خلف زجاج النافذة، فعادا يلتفتان إلى الدكتور أشرف الذي سأله رئيس فريق العلماء في حيرة:

- ماذا هناك؟!

أشار الدكتور أشرف إلى القمر بيد مرتجفة، وهو يغمغم في صوت مختنق:

- القمر.

سأله العميد في عصبية:

- ماذا عنه؟!

لم يجِب الدكتور أشرف سؤاله، وإنما استدار إلى رئيس فريق العلماء قائلا في شحوب ينافس شحوب وجهه:

- النظرية سليمة تماما.. السفر إلى الماضي مستحيل!

ارتفع حاجبا الرجلان في دهشة، وهتف رئيس فريق العلماء مستنكرا:

- ولكنك أكدت أن..

قاطعه في عصبية:

- كنت مخطئا.

ثم بدا أقرب أن هذا غير صحيح.. ولن يعلم زمني الحقيقي أي شيء مما فعلته.

لم ينبس أحد الرجلين ببنت شفة، فتابع في يأس:

- فآلتي لم تنقلني إلى زمن آخر.. بل إلى عالم آخر.. عالم موازٍ.

قبل أن ينطق أحدهما بكلمة انهار مكملا:

- ففي عالمي لدينا دوما قمران توأمان وليس قمرا واحدا.

وانحدرت من عينيه دمعة ساخنة..

دمعة يائسة بائسة..

للغاية.

☆ ☆ ☆ ☆

جولة أخيرة..

اختلج قلب مدحت في سعادة غامرة وهو يدور حول سيارته الجديدة، ويتحسس جسمها اللامع في زهو غير مصدق أن حلمه قد تحقق في النهاية..

فمنذ خمسة أعوام كاملة بدأ الحلم..

كان يقف في انتظار سيارة تقله إلى مكان سكنه بعد منتصف الليل بنصف الساعة تقريبا، عندما تمنى أن يمتلك يوما سيارة..

لم يكن دخله يسمح بهذا، ولكنه ظل يحلم..

ويحلم..

ويحلم..

ولكنه أبدا لم يكتفِ بالحلم..

لقد راح يدخر كل قرش يستطيع ادخاره في صندوق كبير، كتب عليه بخطه الرديء "السيارة الجديدة"، ووضعه دوما أمام عينيه..

ولكن حتى مع هذا لم يمكنه ادخار سوى آلاف قليلة لا تكفي حتى لشراء "توك توك" بسيط.. ثم جاءت الفرصة على غير انتظار..

شاب من الحي أخبره أن أحدهم يعرض سيارة أجرة للبيع، وبثمن معقول..

والأهم أنه مستعد لتقسيط المبلغ..

وبسرعة تم الاتصال..

ولم يصدق مدحت نفسه، مع سعر السيارة الذي يقل كثيرا عن سعر مثيلاتها في سوق السيارات، ولا مع التسهيلات الكبيرة التي يعرضها عليه صاحبها..

وفي أعماقه نما شك كبير..

السيارة تحمل لوحات أجرة، ووحدها تساوي ثروة في سوق السيارات المصرية، وحالتها أكثر من ممتازة، فلماذا هذا الثمن وتلك التسهيلات الكبيرة؟!

لماذا؟!

طرح تساؤلاته في وضوح على مالك السيارة الذي يحمل اسما عجيبا، لم يسمع مثله من قبل..

اسم "سيلبا"..

وأخبره "سيلبا" هذا أنه ولد في الهند عندما كان والده يعمل هناك، ومن هنا جاء الاسم، ثم أبدى استعداده التام لفحص السيارة في أي مركز معتمد للتأكد من صلاحيتها، وعرض أن يذهبا لاستخراج كل الأوراق الرسمية الخاصة بها..

ووافق هو على الفور..

وجاءت النتائج لتثير دهشته أكثر..

السيارة سليمة من الناحيتين، الرسمية والفنية..

وبكل دهشته تلك سأل "سيلبا":

- وكيف لم تجد لها مشتريا؟!

ابتسم "سيلبا" هذا ابتسامة لم ترُق له، وهو يجيب:

- لم أجد من يستحقها..

وعلى الرغم من أن الإجابة لم تعنِ شيئا، أسرع مدحت يتم كل المعاملات الورقية خشية أن تفلت منه الفرصة..

وبعد يومين فحسب صارت السيارة ملكا له..

رسميا..

وفي سعادة غامرة، قال وهو يتسلمها من "سيلبا":

- لا يمكنك أن تتصور ما الذي فعلته لكي أمتلك سيارة كهذه.

ابتسم "سيلبا" نفس تلك الابتسامة غير المريحة وهو يقول:

- يمكنني أن أتصور.

نطقها في ثقة جعلت مدحت ينظر إليه لحظات في دهشة، قبل أن يبتسم ابتسامة باهتة وهو يغمغم:

- ربما.

وفي أعماقه ارتسمت ابتسامة كبيرة..

- لا.. لن يمكنه أبدا أن يتصور..

ففي نظر الجميع، كان مدحت مجرد موظف بسيط نمطي..

موظف يذهب إلى عمله في انتظام، ويغادره في موعد الانصراف الرسمي، ويجالس بعض رفاقه على المقهى بعض الوقت، ثم يغادرهم للذهاب إلى عمله الليلي الذي يؤمن له ذلك الدخل الإضافي، الذي ادخره لشراء السيارة..

ولأن الكثيرين يعملون في أكثر من مهنة في هذا الزمن، لم يسأله أحد أبدا عن وظيفته الليلية تلك..

"ما رأيك في نزهة أخيرة بالسيارة؟!".

ألقى "سيلبا" عليه السؤال في لهجة، جعلته يتطلع إليه، مغمغما في قلق:

- أخيرة؟!

ضحك "سيلبا" وهو يقول:

- أخيرة بالنسبة إليّ.. لا تنسَ أنها آخر مرة أركب فيها السيارة.

ابتسم مدحت في ارتياح وهو يقول:

- ولم لا؟! أين تريد الذهاب؟!

هز "سيلبا" كتفيه، مجيبا:

- أي مكان.. اعتبره اختبارا لكفاءة السيارة.

شعر مدحت بالزهو وهو يحتل مقعد القيادة ويدير محركها، والتفت إلى "سيلبا" الذي احتل المقعد المجاور وهو يسأله:

- ما رأيك في منطقة الأهرامات؟!

أجابه "سيلبا" في هدوء:

- لا بأس.

انطلق بالسيارة وشعر بالاستمتاع، مع نعومة السيارة وانسيابيتها وهي تنطلق بهما نحو منطقة أهرامات الجيزة، في حين استرخى "سيلبا" في مقعده، وبدا أشبه بالنائم معظم الطريق، والتزم الصمت التام، مما جعل مدحت يقول:

- السيارة تعمل كأنها جديدة.

غمغم "سيلبا":

- إنها كذلك بالفعل.

كان جوابا مقتضبا لم يشبع رغبة مدحت في الحديث، فغمغم:

- ما زلت لا أفهم سبب بيعك لها على هذا النحو.

غرق "سيلبا" في صمته لحظات، ثم أجاب في بطء:

- المهم أنك كنت تحلم بها.

هتف في حماس:

- ومنذ خمس سنوات.

ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتي "سيلبا" وهو يقول بنفس البطء:

- أكثر من خمس سنوات.

انعقد حاجبا مدحت وهمّ بسؤاله عما يعنيه، إلا أن "سيلبا" أغلق عينيه تماما وهو يكمل:

- خمس سنوات وثلاثة أشهر ويوم واحد.

ضغط مدحت فرامل سيارته ليوقفها إلى جانب الطريق بحركة حادة، والتفت إليه متسائلا في توتر:

- كيف أمكنك تحديد هذا، بكل هذه الدقة؟!

ابتسم سيلبا، وقال دون أن يفتح عينيه:

- أليست هذه هي الحقيقة؟!

هتف به في حدة:

- بلى.. ولكن كيف عرفت؟! إنني لم أخبر أحدا أبدا.

حافظ "سيلبا" على ابتسامته، وهو يجيب:

- تماما كما لم تخبر أحدا عن نشاطاتك الليلية.

شعر مدحت بالتوتر يسري في كيانه كله وهو يقول:

- أي نشاطات ليلية؟

التقط "سيلبا" نفسا عميقا، قبل أن يجيب في هدوء:

- السطو على المنازل.

انتفضت كل ذرة في كيان مدحت وتراجع في حركة حادة وهو يقول في عصبية:

- أي قول هذا؟!

أطلق "سيلبا" ضحكة قصيرة مستفزة، قبل أن يقول:

- هل تحب أن أخبرك بعناوين المنازل التي سطوت عليها؟

لم ينبس مدحت ببنت شفة وهو يحدق فيه في ذهول مذعور.

أي رجل هذا؟!

أهو رجل أمن يتعقبه منذ البداية؟!

أم كانت السيارة فخًا للإيقاع به؟!

ولكن لماذا؟

لو أنه يعرف كل شيء عنه، فلماذا هذه الخطة المعقدة؟!

لماذا؟!

"أنت مخطئ.. لم أسطُ على أي منازل..".

قالها بكل عصبيته، فأطلق "سيلبا" ضحكة أخرى وقال:

- حقا؟! وماذا عن الشبان الذين استوقفتهم في أماكن بعيدة عن العمران، واستوليت على ساعاتهم وهواتفهم المحمولة تحت تهديد السلاح؟!

اتسعت عينا مدحت في رعب وهو يهتف:

- من أين حصلت على هذه المعلومات؟!

اعتدل "سيلبا" وفتح عينيه وهو يلتفت إليه قائلا:

- وماذا عن الثلاثة الذين طعنتهم بلا رحمة، عندما رفضوا الاستجابة لك؟!

تراجع مدحت، حتى التصق بباب السيارة المجاور له، وهو يغمغم:

- مستحيل!

تابع "سيلبا" بنفس الهدوء:

- اثنان منهم لقيا مصرعهما بعد أن تركتهما ينزفان في منطقة غير آهلة بالسكان.

ازدادت عينا مدحت اتساعا، وازداد التصاقا بالباب، فأكمل "سيلبا" وهو يتطلع إليه مباشرة:

- وماذا عن تلك الفتاة، التي..

قاطعه في حدة:

- كفى.

كانت كل خلية في جسده ترتجف عندما هتف بالكلمة قبل أن يتحسس المطواة، التي يخفيها في حزامه وهو يميل نحو "سيلبا" متسائلا بكل انفعاله:

- من أنت بالضبط؟!

أجابه "سيلبا" بابتسامة ساخرة:

- أنا الذي يعرف كل شيء عنك.

هتف مدحت في شيء من الشراسة وهو يسحب المطواة في حذر:

- أأنت شرطي؟

أطلق "سيلبا" ضحكة عدوانية، وهو يقول:

- لست كذلك بالتأكيد.

ثم مال نحوه بحركة أفزعته، وهو يضيف:

- الشرطة لا تعرف عنك ما أعرفه.

انتزع مدحت المطواة من حزامه، وفردها أمام وجه "سيلبا"، وهو يقول في شراسة:

- وكيف عرفت عني ما عرفت؟!

لم يبدُ على "سيلبا" أي أثر للخوف من المطواة المشهورة أمام وجهه وهو يقول:

- لن يمكنك أن تفهم، ولكن المهم أنني لست أدينك بما فعلته.

ثم مال نحو المطواة مثبتا عدم اهتمامه بها وهو يضيف:

- الواقع أنك تبدو بالنسبة إلى مثاليا.

وعلى الرغم من أنه هو من يحمل المطواة، فقد شعر بخوف جعله يتراجع، وهو يقول في عصبية:

- مثالي لماذا؟!

اعتدل "سيلبا" مبتعدا عنه، وهو يجيب:

- لكي تنضم إلى مملكتي.

غمغم مدحت بكل دهشته وخوفه:

- مملكتك؟!

أطلق "سيلبا" ضحكة عالية هذه المرة، شقت سكون المنطقة شبه الخالية، وهو يقول:

- ألم تدرك بعد من أنا؟! هل تصورت أن "سيلبا" هو اسمي الحقيقي؟!

بدأ مدحت يرتجف وهو يسأله:

- من أنت؟!

عاد "سيلبا" يميل نحوه بشدة وهو يقول:

- اعكس الاسم وستعرف من أنا.

اتسعت عينا مدحت بكل رعب الدنيا، في حين تراجع "سيلبا" ليطلق ضحكة عالية ثانية وهو يكمل:

- وستعرف لماذا جعلتك توقف سيارتك الجديدة هنا بالتحديد.

ارتجف جسد مدحت وهو يقول:

- لا.. لا يمكن أن يكون ما تقوله حقيقي.. إنك..

وقبل أن يتم عبارته ارتفع صوت مدوٍ من فوقه، وشعر بسقف السيارة الجديدة ينخفض في سرعة مخيفة، و..

"الشرفة التي سقطت، من هذا المنزل الآيل للسقوط سحقت السيارة وراكبها سحقا للأسف".

قالها أحد شهود الحادث قبل أن يشير إلى السيارة المسحوقة، التي يعمل ونش الشرطة على إخراجها من بين الحطام، قبل أن يضيف:

- لقد بدا لي سائقها مجنونا وهو يتشاجر مع نفسه أسفل منزل نخشى كلنا مجرد المرور أسفله.

سأله الضابط المعاين للحادث:

- وهل كان وحده بالفعل في السيارة؟!

أجابه الشاهد في هدوء لا يتفق مع الموقف:

- نعم.. كان وحده تماما، كما ستجدون عندما تستخرجون جثته من حطام السيارة المسحوقة.

أطلق الضابط زفرة وألقى نظرة أسف على السيارة التي اختلطت معالمها وامتزجت أجزاء منها بالدم، ثم عاد يلتفت إلى الشاهد قائلا:

- ربما نحتاج إلى شهادتك في قسم الشرطة لإغلاق محضر الحادث.

أجابه الشاهد على الفور:

- بكل تأكيد أيها الضابط.. المهم أن تتأكدوا من كتابة اسمي على نحو صحيح؛ فوالدي أطلق عليّ اسما يتفق مع عمله في الهند سابقا.. اسم "سيلبا".

وابتسم ابتسامة كبيرة..

هادئة.

☆ ☆ ☆ ☆

عيون القدر..

انتهى طبيب العيون الشهير، من فحص عيني (صبحي)، قبل أن يعتدل، ويقول لهذا الأخير في حزم واثق:

- لا فائدة.

ارتجف صوت (صبحي) وجسده، وهو يغمغم:

- هل تعنى أنني سأقضى عمري كله عاجزا عن الرؤية؟!

هر طبيب العيون الشهير رأسه نفيا، وقال في حزم:

- لم أقل هذا؛ فالعصب البصري لديك سليم، والشبكية كذلك، وإلا ما كان باستطاعتك تمييز الضوء، وحركة الأجسام.

غمغم (صبحي) في مرارة:

ولكنني، وبخلاف هذا، عاجز عن الرؤية، وأنت قلت: إنه لا فائدة.

اعتدل الطبيب، وهو يقول:

- لم أقصد أنه لا فائدة من الرؤية، ولكنني قصدت أن العلاج الطبي لن يفيد في هذا أبدا.

ثم عاد يميل نحوه، مضيفا:

- لابد من علاج جراحي.

هتف (صبحي)، وقد عاوده الأمل.

- حقا؟

لوح الطبيب بيده، في حركة لاحظها (صبحي) بلا تمييز، وهو يقول:

- تحتاج إلى زرع قرنتي العين.

هتف في لهفة:

- لماذا الانتظار إذن؟ أنا رجل ميسور الحال، ويمكنني تحمل نفقات العملية، أيا كانت.

صمت الطبيب لحظات، قبل أن يقول في خفوت:

- المشكلة ليست في النفقات.

وأطلق زفرة حارة، مضيفا:

- المشكلة في القرنيات نفسها.

بدأ الأمل ينسحب مرة أخرى من (صبحي)، وهو يغمغم:

- ألا يمكن شر، وها بأي ثمن؟!

صمت الطبيب لحظة أخرى، ثم قال:

- إنها ليست سلعة تباع وتشترى.

قال (صبحي) في عصبية:

- ولكنني سمعت أنه هناك من يشترى كلية من متبرع، أو..

قاطعه الطبيب في حزم:

- الكلية أمرها يختلف، فالشخص الذي يمنحك كليته، يستطيع العيش بالكلية الثانية، ولكن من سيمنحك قرنيته، ويبقى أعمى طيلة عمره.

تراجع (صبحي) في مقعده في يأس، وهو يغمغم:

- إذن فالأمر لم يختلف كثيرا.. لا أمل.

صمت الطبيب لحظات مفكرا، قبل أن يقول في تردد:

- هناك وسيلة أخرى.

خشى (صبحي) أن يستعيد الأمل، ويفقده مرة أخرى، فقال في حذر:

- أية وسيلة؟!

أجابه الطبيب، بنفس التردد:

- نستطيع الحصول على القرنيتين من شخص حديث الوفاة.

حدق فيه (صبحي)، محاولا رؤيته، وهو يغمغم في ذعر:

.. أتعنى أن أرى بعيني ميت؟!

أمسك الطبيب كتفيه، وهو يقول في صرامة:

لا أحد يمكنه الحصول على عيني شخص حي.. في كل الأحوال، يتم زرع قرنية شخص ميت.

ثم مال نحوه، دون أن يمسك كتفيه، وهو يضيف:

ولدى اليوم بالتحديد، فرصة مثالية للحصول على القرنيتين.. ولتعلم أنهما لا تعيشان لفترة طويلة، ولو حصلت عليهما اليوم، يمكننا إجراء العملية غدا.

امتقع وجه (صبحي)، وهو يغمغم:

- غدا؟!

بدا الطبيب شديد الصرامة، وهو يقول:

.. ربما لا تكون أمامك فرصة أخرى.. احسم أمرك الآن.. إما أن تستعيد قدرتك على الإبصار، وإما...

لم يكمل عبارته، وصمت في انتظار رد فعل (صبحي)، الذي أدار الأمر في رأسه، في توتر شديد، قبل أن يغمغم:

- ألا يمكنني أن..

قاطعه الطبيب، في صرامة عصبية:

- لا.. لا يمكنك.

كان (صبحي) يشعر بخوف وقلق شديدين، ولكن فكرة استعادة القدرة على الرؤية، كانت أكبر من أن يقاومها، فخفض وجهه، وهو يغمغم:

- في هذه الحالة..

ولم يكمل عبارته أيضا..

أو لم يمكنه أن يكملها..

ولكن الطبيب فهمها..

ووضعها موضع التنفيذ..

وفي اليوم التالي، وبعد أن دفع مائتي ألف جنيه، مقابل القرنيتين، أجرى (صبحي) العملية... وخلال أسبوع واحد، تم رفع الضمادات عن عينيه..

ورأى..

لأول مرة منذ سنوات، استطاع أن يرى..

ليس بوضوح تام..

ولكنه رأى..

وفي زهو كبير، غمغم الطبيب:

- الرؤية ستتضح رويدا رويدا، بعد استقرار القرنيتين، والتئام جروح الزرع.

هتف (صبحي) بكل سعادته:

- المهم أنني أرى.

غادره الطبيب، على أن يعاوده في اليوم التالي، في حين بقي هو يتطلع إلى كل ما حوله في سعادة جمة..

لقد نجحت العملية، واستطاع أن يرى أخيرا..

في تلك الليلة نام، والسعادة تملأ كيانه، وتصور أنه سيحلم أحلاما سعيدة جميلة، تتناسب مع حالته النفسية..

كان يسير في طريق مظلم، هادئ..

ومن بعيد، لمح امرأة تسير وحدها، بعد أن أغلقت سيارتها، ثم توقفت؛ لتراجع شيئا ما في حقيبتها..

واقترب منها في سرعة..

والتفتت إليه المرأة مذعورة، وأطلقت صرخة رعب..

ومع الصرخة، امتلأ المشهد كله بالدم، و..

استيقظ..

استيقظ يلهث في ذعر وانفعال؛ بسبب هذا الكابوس البشع، وراح يتلو بعض آيات القرآن، وهو يتساءل: كيف يراوده مثل هذا الكابوس وقد أوى إلى فراشه مفعما بالسعادة والفرح؟

وفي الصباح التالي، روى للطبيب ما حدث، فانعقد حاجبا هذا الأخير في توتر، وهو يقول في خفوت:

- ربما.. ربما تناولت الكثير من الطعام قبل النوم.

أجابه (صبحي) في قلق:

- على العكس.. كل ما تناولته قبل النوم، كان كوبا من الزبادي فحسب.

لوح الطبيب بيده، على نحو رأه (صبحي) في وضوح، وهو يقول:

- إنه الدواء المسئول عن تثبيت الزرع إذن.. بالتأكيد هو كذلك.

ويدا التفسير منطقيا، حتى إن (صبحي) طرح الأمر كله عن ذهنه، وأمضى يومه هادئا، يستمتع بالتطلع إلى ما حوله، وكأنه يراه لأول مرة..

هذه المرة كان يقف في مدخل منزل مظلم، في انتظار شيء ما..

ثم أتى ذلك الرجل..

رجل في العقد الخامس من العمر، وقور المظهر، طيب الملامح، يرتدي حلة شديدة الأناقة، ويحمل حقيبة جلدية، من حقائب العمل..

أتى إلى مدخل البناية في هدوء، وبدأ يصعد في درجات السلم..

وهنا، تحرك هو من مكمنه..

وانقض على الرجل، الذي تراجع في ذعر شديد، وأفلت حقيبته الجلدية، وهو يحاول حماية وجهه..

ومرة أخرى، امتزجت صرخة الرجل، بالدماء التي ملأت المشهد آليًا

كله، و..

وهب من نومه مذعورا..

في هذه المرة كان يلهث في عنف، وبدا له وكأنه مازال يرى الدماء تغطى المشهد، قبل أن تتلاشي في سرعة، ويعود المشهد إلى وضوحه..

وفي هذه المرة، كان انزعاج الطبيب واضحا، وهو يستمع إليه، قبل أن يقول في عصبية شديدة:

- ما ترويه مستحيل.

قال (صبحي) في توتر شديد:

.. ولكنه حدث.. ولقد رويته لك بكل تفاصيله.

انعقد حاجبا الطبيب في شدة، ونهض يسير في حجرة الكشف في عصبية، قبل أن يتوقف مغمغما:

- ولكن القرنيات ليست لها ذاكرة.

حدق فيه (صبحي) في دهشة، وهو يقول:

.. ذاكرة؟!.. ماذا تعني؟!

لوح الطيب بذراعيه، وهو يقول:

- لا عليك.. هو مجرد قول.. اطمئن.. سأقوم بتغيير الدواء، ولن تري مثل هذه الكوابيس مرة أخرى.

ولكنه كان مخطئا..

إنه هذه المرة يرتدي حلة حمراء، ويقف على منصة الإعدام، وحوله ضابط، وواعظ وعشماوي منفذ الأحكام، وطبيب..

نفس طبيب العيون، الذي زرع له القرنيتين..

كان الواعظ يدعوه إلى التوبة، والضابط يتلو حكم المحكمة، الذي صدر بإعدامه شنقا، بسبب الجرائم التي ارتكبها، مع سبق الإصرار والترصد..

ثم وضع عشماوي غطاء أسود على وجهه..

وشعر بأنشوطة الحبل تلتف حول عنقه..

وصرخ..

واستيقظ هذه المرة، والرعب يملأ كيانه كله.

لمن القرنيتين اللتين زرعتهما لي؟!..

سأل طبيب العيون، في توتر شديد، فأجابه الرجل في عصبية:

- عينا متوف حديث الوفاة.. لقد سبق وأن أخبرتك.

أمسك يده في قوة، وهو يسأله بكل انفعاله:

- أي متوفِ؟ ... أهو شخص تم إعدامه؟!

انتفاضة الطبيب كانت تحمل الجواب، وهو يقول في عصبية:

- وما الفارق؟!.. كل القرنيات تتشابه.. وليست لها ذاكرة..

العلم يجزم بهذا.

صاح فيه في حدة:

أو ربما لم يكشف العلم هذا بعد.

جذب الطبيب يده منه في حدة، وهو يصرخ:

- لا.. ليست لها ذاكرة.. ليست لها ذاكرة.

الظلام يحيط به من كل جانب..

إنه داخل مكان مظلم بارد..

ثم فجأة، ينسحب جسده إلى الضوء..

وذلك الطبيب يقف إلى جواره، وينحني عليه، وهو يمسك بيده مشرطا، يتجه به نحو عينيه، و..

وكان استيقاظه شديد العنف هذه المرة..

لقد سرقت عيني مجرم، تم إعدامه شنقا..

صرخ بها في وجه الطبيب، الذي قال في عصبية شديدة:

- لماذا تجهد نفسك في هذا الشأن؟.. عملية الزرع ناجحة.. وقدرتك على الرؤية تتحسن يوميا.

امتدت يده، تمسك مشرط الطبيب، وهو ينهض متجها نحوه؛ وقائلا في شراسة:

- لقد سرقت العينين.

صرخ فيه الطبيب:

- كنت تعلم أنني سأسرقهما، ولم تعترض.. كنت تريد الرؤية بأي ثمن.. هل تذكر؟ بأي ثمن.

لم يكن هو من يتحرك هذه المرة..

شيء ما سيطر على كيانه كله، وجعله يندفع نحو الطبيب، صارخا:

- أخذت عيني، وسأخذ عينيك.

وصرخ الطبيب..

وصرخ..

وامتلأ المشهد بالدم، كما يحدث في كوابيسه.. ولكن (صبحي) لم يستيقظ...

لأنه كان بالفعل مستيقظا..

ويرى..

وبكل وضوح.

☆ ☆ ☆ ☆

اللغز..

لم تتبق أمامي سوى دقائق قليلة؛ لأكتب هذه الكلمات، التي ستحلّ الكثير من الغاز أعقد قضية، في تاريخ إدارة البحث الجنائي، التي أعمل بها..

الواقع أنها قضية، لم يتم تكليفي بها رسميا، ولكنني غرقت فيها إلى أذني؛ لسبب بسيط للغاية... لقد حدثت في نفس الحي، الذي أقيم فيه..

وأنا أقيم في منطقة شديدة الهدوء، في حي (المعادي) القديم، وفي البناية الوحيدة في المنطقة، التي تحوي عددا من الفيلات الأثرية، التي تصنع في مجموعها تحفة فنية معمارية، أعتقد أن بنايتي هي التلوث البصري الوحيد فيها..

كانت المنطقة هادئة للغاية، وربما أكثر من المعتاد، في تلك الليلة، التي غاب فيها القمر، وانخفضت فيها الإضاءة، وساهم المطر المنهمر، منذ أكثر من ثلاث ساعات، في خلو الشوارع من المارة، واختفاء سكان المنطقة داخل بيوتهم..

حتى دوت تلك الرصاصة..

كان دويها أشبه بقنبلة، انفجرت وسط الهدوء، وأثارت موجة من الانزعاج، في المنطقة كلها..

بعدها بدقائق، انطلقت صرخة، من الفيلا التي تجاور بنايتي بالضبط..

وعندما وقفت أمام باب تلك الفيلا، كان معظم سكان الحي هناك، وكانت هناك حالة من الهرج والمرج في المكان..

وما إن رآني السكان، حتى أفسحوا لى الطريق في تلقائية؛ لعلمهم أنني ضابط مباحث، تلتقطني وتعيدني إلى منزلي سيارة شرطة رسمية، على نحو يستحيل ألا يلاحظه الكل..

كانت زوجة الأستاذ (نادر)، تاجر المجوهرات الشهير، منهارة تماما في صالة الفيلا، تحيط بها مجموعة من النسوة، تسعين لتهدئتها، في حين كان الخدم شاحبي الوجوه، وكان باب حجرة مكتب الأستاذ (نادر)، في الطابق الأرضي مكسورا، ويبدو منه هذا الأخير، منكفئا على وجهه، على سطح المكتب، وفي يده اليمنى مسدس، مازال الدخان الخفيف يتصاعد من فوهته، وحول رأسه بركة من الدم..

ألقيت نظرة على ساعتي، التي أشارت عقاربها إلى التاسعة مساء، وذكرت نفسي بضرورة مغادرة المكان في العاشرة، قبل أن أسأل أحد الخدم:

- ماذا حدث بالضبط؟!

أجابني مرتجفا، والدموع تملأ عينيه؛

- (نادر) بك.. كان يراجع حساباته في مكتبه، كعادته كل ليلة، وكنا نستعد لنأوي إلى فراشنا، عندما سمعنا صوت الرصاصة، فهرعنا إلى هنا، وحاولنا فتح الباب، ولكنه كان مغلقا من الداخل، فكسرناه ودخلنا، لنجده على هذه الصورة.

ألقيت نظرة أخرى على جثة (نادر)، قبل أن أسأل:

- أهناك سبب يدفعه للانتحار؟

- كلا..

هتفت بها زوجته في حدة، قبل أن تنفلت من النسوة اللاتي يحطن بها، وتواصل في انفعال:

- لم يكن هناك أي سبب، يدعوه إلى هذا.. على العكس تماما..

لقد كان يستعد لافتتاح فرع جديد للمصوغات الماسية وحدها، وكان شديد التفاؤل بشأنه، ثم إنه رجل مؤمن، لا يقدم على الانتحار، مهما كانت الأسباب.

أشرت إلى الخزانة المفتوحة، قائلا:

- الخزانة خاوية، وربما كشف سرقة ما، أو..

قاطعتني في حدة:

هذا دليل آخر، على أنها حادثة سرقة، انتهت بالقتل، فهذه الخزانة كانت تحوي ما قيمته عشرة ملايين جنيه من الماس، قبل نصف الساعة، فحسب، ولقد أغلق الباب خلفه؛ ليفحصها بعناية.

أعدت النظر إلى المكان كله، وغمغمت في تردد:

- ربما دخل القاتل عبر النافذة.

قلتها، واتجهت مباشرة إلى نافذة حجرة المكتب الوحيدة، وأخرجت منديلا من جيبي، أمسكت به رتاجها، وأدرته مرتين، قبل أن ألتفت إليها، قائلًا:

- النافذة مغلقة من الداخل.

هتفت، والدموع تنهمر من عينيها:

- والباب كان مغلقا من الداخل أيضا، ولقد رأيت الماس بنفسي، قبل أن يغلق (نادر) الباب خلفه.

قلبت كفي، وأنا أعيد النظر في الحجرة، قائلًا:

- لم يبق أمامنا، سوى أن القاتل كان يختبئ هنا، قبل أن يأتي الأستاذ (نادر).

هتفت:

- أين؟!.. المكان قليل الأثاث كما ترى.. مكتب من الطراز الفرنسي القديم، له أربع أرجل رفيعة، وأريكة ومقعدان ومنضدة من الطراز نفسه، ومكتبة ملتصقة

بالجدار.. أين يمكن أن يختفي القاتل إذن؟!..

مرة أخرى، رحت أفحص الحجرة جيدا، قبل أن أغمغم:

- لا يتبق أمامنا سوى احتمال الانتحار إذن.

أجابني صوت ذكوري هذه المرة:

- هذا مستحيلا.

التفت إلى الدكتور (فوزي)، ساكن الفيلا المجاورة، وأنا أسأل:

- ولماذا؟

أشار إلى جثة (نادر)، قائلا:

- أولا؛ لأن الأستاذ (نادر) أعسر، وهو هنا يمسك المسدس بيده اليمنى، والأعسر، إذا ما أراد الانتحار، فمن الطبيعي أن يمسك المسدس بيده اليسرى.

شعرت بالضيق؛ لأن هذه الملحوظة الهامة فاتتني، وأنا ضابط المباحث القديم المخضرم، صاحب الباع الطويل في المهنة، ولكنني كتمت هذا في أعماقي، وأنا أقول:

- وثانيا؟

تقدم خطوتين إلى الأمام، وهو يشير إلى يد القتيل، مجيبا:

أصابعه مرتخية على مقبض المسدس، وهذا يتنافى مع حالات الانتحار حيث تنقبض الأصابع بشدة على المقبض حتى يصعب انتزاع السلاح من يده.

كانت ملحوظة أخرى، ينبغي أن أنتبه إليها، وخاصة عندما قالت زوجة القتيل في حدة منفعلة:

- أضف إلى هذا اختفاء ماس قيمته عشرة ملايين جنيه.

كان حديثهما مقنعا للغاية، فقلت، وأنا أدير عيني في الخدم:

- وماذا عنهم؟!

امتقعت وجوه الخدم، وانكمشوا على أنفسهم في رعب، في حين قالت الزوجة في حسم:

- مستحيل!.. لقد أغلق (نادر) باب المكتب، وجلست أنا هنا، في انتظار انتهائه من عمله، ولم أر أحدهم يقترب حتى من الباب.

قلت في سرعة:

- ولكنهم قالوا: إنهم كانوا يستعدون للنوم، وربما دار بعضهم خلف الفيلا، و..

قاطعني الدكتور (فوزي)، في لهجة حملت لمحة من السخرية:

- ودخل عبر النافذة، المغلقة من الداخل؟!

شعرت بالضيق والحرج، فقلت في صرامة:

- مازال الاحتمال قائما.

ثم أشرت بسبابتي، مردفا في حزم:

- وربما أرشدتنا آثار الأقدام في الحديقة الخلفية إلى هذا.

هز الدكتور (فوزي) رأسه نفيا، وقال:

- بعد أكثر من ثلاث ساعات من المطر، لا أعتقد أن هذا سيجدي نفعا..

تطلعت إلى حذائه، الذي يلوثه الطين، وقلت في صرامة:

- لن نخسر شيئا.

اصطحبني بالفعل إلى الحديقة الخلفية، وكانت المياه تغطى مساحتها كلها تقريبا، فغمغم:

- ألم أقل لك؟

أغاظتني ثقته الزائدة، فسألته فجأة في صرامة:

- هل كنت تعلم بوجود الماس؟

هز كتفيه في بساطة، قائلًا:

- إنه لم يخبرني، ولكن وصول سيارة مصفحة إلى منزله، مع حارسي أمن، نقلا منها صندوقا صغيرا إلى الداخل، في وضح النهار، أمام الحي كله، أمر يمكن أن تستنتج منه هذا في سهولة.

ثم مال نحوي، مضيفا:

- وخاصة أننا جميعا نعلم أنه يستعد لافتتاح فرع خاص بالمصوغات الماسية وحدها.

كان محقا في قوله، فالأسلوب الذي وصل به الماس إلى فيلا (نادر)، كان كفيلا بجذب انتباه الحي كله.

وفي أسف، تابع الدكتور (فوزي):

- رحمه الله كان، على الرغم من دقة عمله، شديد الاستهتار بوسائل الأمن في الفيلا، حتى إنه كثيرا ما كان يترك النافذة الخلفية لمكتبه مفتوحة، وكنت أراه من فيلتي أحيانا، وهو يحصي مبلغا كبيرا من المال قبل أن يضعه في خزانته، ولقد نبهته إلى منال أكثر من مرة، ولكنه كان يكتفي بابتسامة واثقة، دون أن يقول شيئا.

بدا لي الدكتور (فوزي) مشتبها فيه مثاليا، يعرف كل شيء عن القتيل، ويتابعه، ويمكنه رصده من فيلته..

- ألم تر شخصا يحوم في الحديقة الخلفية الليلة؟!..

ألقيت عليه السؤال في اهتمام، فعاد يهز كتفيه في بساطة، وهو يقول:

- الطقس والمطر لا يدفعان أحدا للنظر.

مرة أخرى كان محقا، فاكتفيت بإيماءة رأس، وسرت عائدا إلى مدخل الفيلا، وسمعته من خلفي يقول:

- ولكن الأمر يبدو لغزا.. كيف يمكن أن يفعل أحدهم هذا، في حجرة مغلقة من الداخل، وليس بها مكان للاختباء؟!

غمغمت، وأنا ألقي نظرة على ساعة يدي:

- لست أدرى.

ثم التفت إليه، مضيفا في صرامة؛

- ثم إنني لست هنا بصفة رسمية.

ارتفع حاجباه في دهشة، وهو يقول:

- حقا؟

أومأت برأسي إيجابا، وقلت في حزم:

- لقد سمعت دوى الطلقة مثلكم، وجئت لأرى ماذا حدث، أما زميلي الرائد (محمود)، فسيصل بعد قليل، مع رجال المعمل الجنائي، وسيحاولون حل اللغز.

غمغم في حيرة:

- وهل له من حل؟!

قلت في صرامة:

- كل جريمة لها حل.

أتى الرائد (محمود)، ضابط مباحث القسم بعد قليل، مصطحبا رجال المعمل الجنائي، وشرحت له الصورة بسرعة، ثم اعتذرت له، بأنه من الضروري أن أنصرف في العاشرة؛ للحاق بموعد شديد الأهمية..

ولقد انطلقت بعدها على الفور، للحاق بالطائرة، التي ستقلع بي إلى بلد، لم يعقد مع (مصر) اتفاقية تبادل مجرمين..

فالدكتور (فوزي) كان على حق..

الأستاذ (نادر) كان شديد الاستهتار بسبل الأمن في الفيلا، حتى إنني، وبعد أن أدركت، من وصول سيارة الأمن المصفحة، وما حدث بعدها، من نقل حارسين مسلحين صندوقا صغيرا إلى داخل الفيلا استغللت الأمطار الغزيرة، التي أعلنت عنها النشرة الجوية؛ لكي أختبئ في الحديقة الخلفية للفيلا، عند النافذة، التي تركها

مفتوحة كعادته، موقنا من أن أحدا لن يراني، في مثل هذا الطقس، ومن أن الأمطار ستمحو آثار قدمي وكنت أرتدي معطفا رقيقا من المشمع، وكيسين من البلاستيك يحيطان بحذائي، وعقب إغلاقه الباب، خلعت المعطف والكيسين، وعبرت النافذة إلى الداخل، وصرعته بلكمة فنية، ووضعته خلف مكتبه، واستوليت على ماسات قيمتها عشرة ملايين جنيه، وخرجت من النافذة، بعد أن وضعت المسدس في يده، وأطلقته على رأسه..

وبسرعة، وصلت إلى مدخل الفيلا مع الباقين، وعندما تظاهرت بفحص رتاج النافذة، أغلقته في إحكام، ليبدو وكأنه مغلق من الداخل، وليس من الخارج، كما أغلقته عند انصرافي، مستغلًا انشغالهم في كسر الباب..

كانت جريمة كاملة من وجهة نظري..

جريمة حصلت بها على ما يكفيني طيلة عمري..

ولكن المشكلة أنه ما من جريمة كاملة..

لقه، ارتكبت بالفعل تلك الأخطاء، التي كشفها في سرعة الدكتور (فوزي)، وسيكتشفها حتما الرائد (محمود)..

وبسرعة، ومع عثورهم على المعطف الرقيق والكيسين، ومع اختفائي المفاجئ، سيدركون أنني الفاعل..

كانت خطتي تعتمد على أن أكون خارج البلاد، عندما يكشفون ولكنه المطر اللعين..

رحلة الطيران تأجلت بسبب الطقس، لليوم التالي..

وأنا تركت بصماتي في المكان، معتمدا على أنني لن أكون هنا، عندما يكشفون الأمر..

والآن، وأنا أكتب هذه الكلمات في سرعة، تسيل الدماء من شرايين معصمي، التي استخدمت موس حلاقة بسيط لقطعها، في حمام المطار..

لن أحتمل السجن..

ضباط المباحث يعانون الأمرين، عندما يضعونهم وسط المجرمين في السجن..

وليس أمامي حل آخر..

أتعشم أن تكون كلماتي هذه قد وفرت عليكم الكثير من الجهد، في كشف غموض هذا اللغز، وتلك الجريمة، التي منعها المطر من أن تكتمل بنجاح..

والآن سأتوقف؛ لأنني أشعر بالضعف الشديد، وبأن الموت يقترب منى بسرعة... فوداعا.. وداعا يا مهنة الشرف..

ووداعا أيها الشرف..

لقد خسرتكما معا..

وداعا.

☆ ☆ ☆ ☆

القرار..

فرك أسامة كفيه في توتر، وهو يجلس في عيادة طبيب وجرّاح الكلى الشهير، الدكتور فايز عبد النعيم، وتعلقت عيناه بتلك الساعة القديمة على الجدار، والتي أشارت عقاربها إلى قرب منتصف الليل، وهو يتساءل في قلق عن سر استدعاء الجراح الشهير له..

لقد التقى به مرة واحدة في حياته كلها..

ولم تكن حتى بالمقابلة الجيدة..

كان الجراح الشهير يرأس لجنة إجراءات زراعات الكلى حينذاك..

وكان هو مستعدا للتبرع بإحدى كليتيه لرجل ثري في الخامسة والخمسين من العمر، أصابه فشل كلوي مزمن، منذ أكثر من عامين..

ولقد اضطر ذلك الثري إلى الانتظار لأكثر من عامين، بحثا عن متبرع تتوافق أنسجته معه لإجراء عملية الزرع..

وأخيرا عثر عليه..

كانت نسبة توافق الأنسجة بينهما تزيد عن خمسة وتسعين في المائة، مما يجعله متبرعا مثاليا، من الناحيتين العملية والطبية، ويضمن استقرار الكلى المزروعة، وعملها على نحو أفضل في جسد المضيف..

والفحوصات الطبية جاءت كلها ملائمة تماما..

وبقي أمر واحد، هو أصعب إجراء بالنسبة إلى هذا النوع من العمليات الجراحية..

موافقة لجنة الإجراءات، التي كان يرأسها الدكتور فايز..

وما زال حتى هذه اللحظة يذكر ما حدث..

"توافق الأنسجة لا يعنيني".

قالها آنذاك الدكتور فايز في غِلظة، فسأله الثري في قلق:

- ولكن الفحوص كلها ممتازة، والمتبرع وافق على إجراء العملية.

مط الدكتور فايز شفتيه، وقال في صلف:

- مُقابل كم؟

ما زال أسامة يذكر ارتباكه مع السؤال، وكيف أنه انكمش في مقعده، كما لو أنه تلميذ خائب ضبط متلبسا بالكذب، في حين أجاب الثري في قلق:

- وما شأن اللجنة بهذا؟! إنه شخص بالغ وأعطى موافقته كتابة، وها هو ذا بنفسه أمامكم ليؤمن على موافقته.

بدا الدكتور فايز شديد الشراسة، وهو يقول:

- سألتك مُقابل كم؟!

أجابه الثري في شيء من الحدة:

- مجانا.. إنه يمنحني كليته تبرعا لوجه الله سبحانه وتعالى.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه الدكتور فايز وهو يقول:

- أتظنني ساذجا إلى هذا الحد؟!

ازداد أسامة انكماشا في مقعده، في حين التفت الثري إليه يسأله في غضب:

- هل تقاضيت ثمنا لكليتك يا أسامة؟!

هز لحظتها رأسه نفيا، وحلقه الجاف يمنعه من النطق..

كان يخشى أن يعرف رئيس اللجنة أنه قد تقاضى خمسين ألفا من الجنيهات، مقابل قطعة من جسده.

ولكنه ليس الوحيد المستعد لفعل هذا..

مئات الألوف من هذا الشعب الفقير لا يترددون في بيع أعينهم نفسها، في سبيل الفوز بمبلغ كهذا..

هو نفسه، لم يقدم على طرح نفسه كمتبرع بإحدى كليتيه إلا عندما ضاقت به كل السبل، وعمل في أكثر من مهنة، لم يكفِ دخلها لينفق على أسرته الكبيرة، التي يعولها وحده بعد وفاة والده..

ولم يكن يشعر حتى بالارتياح وهو يفعلها..

إنه يبيع قطعة من جسده..

صحيح أنهم أكدوا له أن كليته الثانية ستعوّض الفارق، وأنه لن يشعر قط بغياب الكلية التي سيتبرع بها..

لقد باعها..

باعها من أجل المال..

فقط المال..

"هذا أيضا لن يقنعني".

قالها الدكتور فايز بكل صرامة لينتزعه من أفكاره، فازداد انكماشه في مقعده أكثر وأكثر، وهو يخشى أن ترفض اللجنة التصريح بإجراء الجراحة، فتضيع فرصته في الحصول على المبلغ، الذي يمكن أن ينتشله من مأساته..

أما الثري فقد ازداد غضبه وهو يقول في حدة:

- ماذا تريدون بالضبط؟! أن أموت؟! كل الأوراق التي طلبتموها استوفيتها، والمتبرع معي شخصيا ليؤكد موافقته، فماذا تريدون أكثر من هذا؟!

أجابه الدكتور فايز في سخرية:

- لا أحد يموت اليوم بفشل كلوي.. وحدات الغسيل الكلوي تملأ البلد، وأنت رجل ثري؛ يمكنك أن تنشئ وحدة غسيل كلوي خاصة في فيلتك.

سأله في حدة:

- ولماذا لا أجري عملية الزرع الكلوي بدلا من كل هذا؟!

زمجر الدكتور فايز في شراسة، وهو يقول:

- لأننا لن نجعل فقراء مصر يدفعون صحة الأغنياء.

مال الثري نحوه، يقول في تحدٍ:

- ولكن معلوماتي تؤكد أنكم منحتم الموافقة لثلاثة من الأشقاء العرب الأثرياء أيضا، والذين حصلوا على الكلى من بعض فقراء مصر.

صاح فيه الدكتور فايز في حدة:

- هل تتهم اللجنة بالفساد؟ كيف تجرؤ؟!

بدا الثري شديد الصرامة هذه المرة، وهو يقول:

- هل ستوافقون على إجراء الجراحة أم لا؟!

صمت أفراد اللجنة جميعهم، أو أنهم واصلوا صمتهم القلِق، في انتظار رد الدكتور فايز الذي أجاب في تحدٍ:

- نريد أن يتبرع أحد أقاربك بالكلية المطلوبة.

قال الثري في تحدٍ مماثل:

- الأوراق التي أمامك تثبت أن أحدا منهم لا تتوافق أنسجته، أو فصيلة دمه معي.

بدا وكأن القول قد راق للدكتور فايز، الذي تراجع في مقعده، وهو يقول في غطرسة متحدية:

- في هذه الحالة لا يمكننا القبول.

مضت لحظة من الصمت، تبادل فيها الثري نظرة تحدٍ مع الدكتور فايز، قبل أن ينهض في حدة، قائلا:

- لا بأس.. لن أحتاجها.

ثم أشار إلى أسامة، قائلا بنفس الحدة:

- هيا بنا.. لن نحتاج إليهم، أو إلى موافقتهم.

هتف بهما الدكتور فايز في شراسة وهما ينصرفان:

- حذار أن تجري الجراحة دون موافقة.. القانون يمنعك من هذا.

أجابه الثري في سخرية متحدية وهما ينصرفان:

- هذا يتجاوز حدود سلطاتك.

وما أن صار خارج المكان حتى سأل أسامة في اهتمام:

- ألديك جواز سفر؟!

* * *

"الدكتور فايز سيستقبلك، بعد انصراف المريض الحالي".

قالها ممرض الدكتور فايز، الذي لا توحي ملامحه أي ارتياح، فانتزع أسامة من ذكرياته، ودفعه إلى أن يومئ برأسه في صمت، وهو يتأمل العيادة الخالية من حوله..

لقد أبقاه الجراح الشهير حتى نهاية عمل العيادة لسبب ما..

والسؤال هو لماذا؟!

لماذا؟!

انتهى المريض الأخير من الكشف الطبي وانصرف تاركا العيادة خالية، وجاء الممرض يخبره أن الجراح الشهير سيلتقي به الآن، فالتقط نفسا عميقا، وحاول تعديل هندامه البسيط قبل أن يدخل لمقابلته وهو يرتجف في أعماقه..

ولكن العجيب أن الجراح استقبله بابتسامة كبيرة، وهو يصافحه في حرارة قائلا:

- أسامة.. كيف حالك يا رجل؟ تبدو مختلفا كثيرا عن آخر مرة رأيتك فيها.

غمغم والقلق ما زال يملأ نفسه:

- الزمن كفيل بتغيير كل شيء.

أشار إليه الدكتور فايز بالجلوس وهو يسأله:

- لقد أجريت تلك الجراحة.. أليس كذلك؟!

أومأ برأسه إيجابا وهو يقول في خفوت:

- بلى.. أجريتها في الصين.

وعلى عكس ما توقعه، أطلق الدكتور فايز ضحكة، وهو يقول:

- كنت أتوقع هذا، فهم لا يلتزمون بأي قوانين هناك.

وافقه بإيماءة من رأسه، دون أن يعي شيئا عما يقال، فعاد الدكتور فايز يسأله في اهتمام:

- وماذا كان المقابل؟

بدا قلقا من السؤال، فضحك الدكتور فايز مرة أخرى وهو يقول:

- لا تقلق.. إنه ليس سؤالا استدراجيا.. إنه الفضول فحسب.

دخل الممرض في هذه اللحظة، ليضع أمامه كوبا من العصير، فأشار الدكتور فايز إلى الكوب قائلا:

- اشرب العصير أولا لتهدأ، ولا تُجب إن لم ترِد هذا.

التقط كوب العصير وشرب نصفه دفعة واحدة، مع جفاف حلقه وتوتره، وعندما خفض الكوب، كان الدكتور فايز يتطلع إليه في اهتمام، فغمغم متوترا:

- كنا قد اتفقنا على خمسين ألف جنيه، ولكن بعد نجاح العملية أضافت إليها زوجته عشرة أخرى.

أشار الدكتور فايز إلى كوب العصير مرة أخرى وهو يقول:

- وهل كان هذا كافيا؟

التقط الكوب ليشرب ما تبقى فيه، قبل أن يجيب:

- لقد اشتريت محلا صغيرا في الحارة التي أقيم فيها، وزودته بالبضائع، وهو ينفق على الأسرة كلها الآن.

بدا شيء من الارتياح على وجه الدكتور فايز، وهو يقول:

- إذن فقد صارت أحوال الأسرة مستقرة الآن؟!

أومأ برأسه إيجابا، وارتسمت على شفتيه -على الرغم منه- ابتسامة صغيرة، انتقلت إلى شفتي الدكتور فايز الذي قال في بطء:

- التضحية إذن كانت مجدية.

وافقه أسامة بإيماءة من رأسه، وهو يغمغم:

- الحياة كلها تضحيات.

بدا وكأن كلماته قد مست شيئا في نفس الدكتور فايز، فقد بدا شاردا وهو يكررها في بطء:

- نعم.. الحياة كلها تضحيات.

تساءل لحظة، لماذا يتحدث الدكتور فايز بهذا البطء، ثم انتبه فجأة إلى أنه هو نفسه يتحدث ببطء لم يعتده..

أو أنه يشعر بهذا على الأقل..

وليس هذا وحده ما يشعر به..

لقد تثاقلت أطرافه، وعجز جفناه على البقاء في موضعهما، فانهدلا على عينيه، وهو يقول في صعوبة:

- أشعر بـ..

لم يستطع إتمام الكلمة، ودار رأسه على نحو غير طبيعي، ولاحظ أن الدكتور فايز يتطلع إليه في اهتمام شديد، فغمغم:

- لماذا؟!

ثم أطبق الظلام عليه دفعة واحدة..

لم يدر كم ظل يحيط بعقله، ولكنه استعاد شيئا من وعيه، ليرى الدكتور فايز واقفا إلى جواره، مرتديا زي العمليات الجراحية، وممسكا بمحقن في يده..

ولاحظ أنه راقد على ما يشبه مائدة عمليات جراحية، فأدار رأسه في صعوبة، ليجد شابا يرقد على مائدة مشابهة إلى جواره، ومن الواضح أنه في حالة تخدير كامل، وممرض الدكتور فايز يقوم بعمل شيء ما بالقرب منه، في حين سمع الدكتور فايز نفسه يقول بلهجته الصارمة القاسية التي يذكرها:

- لقد استعدت وعيك قبل الأوان، ولكن هذا العقار سيعيدك إلى حالة التخدير الكامل..

شعر به يحقنه بالعقار، فكرر الكلمة نفسها في صعوبة:

- لماذا؟!

بدا الدكتور فايز أكثر قسوة وصرامة، وهو يقول:

- الذي يرقد على مائدة الجراحة المجاورة هو ابني الوحيد، ولقد أصابه فشل كلوي كامل منذ أكثر من عام، أرهقه خلاله الغسيل الكلوي المستمر، وكاد يقضي على مستقبله.. ومشكلته أن خلاياه لم تتوافق إلا مع شخص واحد عثرت على بياناته على شبكة معلومات المتبرعين.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف بمنتهى القسوة:

- أنت.

كان المخدر يؤتي ثماره في سرعة، مما منعه أن يصرخ بأنه قد منح إحدى كليتيه بالفعل، ولو منح الثانية فسيعني هذا موته..

ولكنه لم يحتج إلى طرح السؤال، فقد تابع الدكتور فايز في صرامة وعصبية:

- أعلم أنه لم يتبق لديك سوى كلية واحدة، وهو يحتاج إليها، فماذا تفعل لو كنت مكاني؟! هل كنت ستختار مستقبل ابنك، أم حياة شخص لم يبالِ ببيع قطعة من جسده

في مقابل المال؟!

حاول أن يصرخ..

أن يقول: إنه في النهاية إنسان..

حياة..

مستقبل..

ولكن المخدر كان يلتهم وعيه في سرعة، وذلك الوحش الآدمي إلى جواره، يلتقط مشرطه بالفعل، ليبدأ في انتزاع كليته الثانية..

حاول جاهدا أن يبقي عينيه مفتوحتين، لأنه يدرك أنه لو أغلقهما فسيكون هذا آخر ما يمكن أن يشاهده في الدنيا..

ولكن هيهات..

لقد اتخذ الوحش الآدمي القرار..

والدنيا من حوله تظلم..

وتظلم..

وتظلم.

☆ ☆ ☆ ☆

خلود..

الطريق ممتد أمامه بلا نهاية..

وسيارته تنطلق في سرعة..

وذهنه منشغل بذلك الحديث، الذي دار بينه وبين شريكه في العمل..

لماذا ترفض إتمام هذه الصفقة بالله عليك؟!..

صاح شريكه بالعبارة في عصبية، فاستقبلها هو في برود، وهو يلتقط حبة عنب، من طبق الفاكهة الكبير أمامه، ويلقيها بين شفتيه، قائلا:

- لأننا قمنا بمثلها من قبل.

تراجع شريكه في دهشة كبيرة، ثم اندفع يقول:

- أي سبب سخيف هذا؟!.. وماذا لو أننا قمنا بمثلها ألف مرة من قبل؟!.. المهم أنها صفقة رابحة..

ألقى حبة عنب أخرى في فمه، واسترخي خلف مكتبه، وهو يقول:

- الملل يا شريكي العزيز... الملل.. أنا رجل متجدد، لا أرتاح أبدا للقيام بالعمل الواحد مرتين.

حاول شريكه السيطرة على أعصابه، وهو يقول:

- هذا ينطبق على الطعام، أو الثياب، أو حتى النساء... ولكنه لا ينطبق على عمل... (بيزنس)... معذرة يا رجل، ولكن منطقك يخالف كل منطق.

أسعده أن بلغ الحوار هذا الحد، فأشاح بوجهه عن شريكه؛ ليخفي ابتسامته المتشفية، وهو يقول في برود:

ولكنه منطقي، وأنا أؤمن به.

احتقن وجه شريكه في غضب، وقال في حدة:

- اسمع.. لو أنك ترفض المشاركة في هذه الصفقة، فسأتمها وحدي، و...

قاطعه، وقد عجز تشفيه عن الاختفاء وراء برودة:

- لا يمكنك هذا..

صدم شريكه للجواب مرة، وللهجة التي قيل بها ألف مرة..

ولما لم تعد هناك قيمة للمواربة، فقد عاد يلتفت إلى شريكه، وهو يقول في شراسة:

- مشكلتك يا شريكي العزيز، هي أنك أكثر طيبة، من أن تنجح في مجال المال والأعمال.. إنك حتى لم تعترض، عندما أصررت على أن تصدر كل عقود التوكيلات باسمي وحدي.

غمغم شريكه مصدوما:

- لقد منحتك ثقتي.

أطلق هو ضحكة ساخرة عالية، قائلًا:

- وهذه نقطة ضعفك يا رجل.. الثقة الزائدة.

بدا له أن شريكه يغوص في مقعده، من فرط الصدمة، ولكنه تابع في قسوة:

- المكتب هنا باسمي وحدي، والشركة مسجلة باسمي وحدي، وكل عقود التوكيلات باسمي وحدي.

ثم مال نحوه في تشف، مضيفا بابتسامة مستفزة:

- باختصار، ليس لك أي وجود رسمي هنا.

امتقع وجه شريكه، وازدادا انكماشا في مقعده، وهو يغمغم:

- هل تعنى أن..

قاطعه بضربة قوية مفاجئة، من راحة يده، على سطح المكتب وهو يصرخ فيه:

- نعم... هذا المكتب ملكي وحدي.

انتفض شريكه مع صرخته، ثم عاد ينكمش في مقعده، وهو يقول في ضياع:

- وماذا عن رأس المال، و...

مرة أخرى قاطعه في صرامة:

- لا يوجد ما يثبت أنك قد ساهمت بجنيه واحد.

انتفض شريكه مرة أخرى، وصار وجهه أشبه بوجوه الموتى، وهو يغمغم في شحوب شديد:

- إنك بهذا تدمرني.

تراجع في تشف، قائلا:

- بل أنت دمرت نفسك؛ بسذاجتك وحماقتك يا هذا.

ثم قسا صوته، مع إضافته:

- ولكنك تستحق هذا

غمغم شريكه، وهو يكاد يفقد الوعي انهيارا:

- أستحقه؟!.. ولماذا أستحقه.. ألأنني أتعامل معك منذ البداية بما يرضى الله سبحانه وتعالى، على الرغم من..

قاطعه هو بزمجرة شرسة:

- على الرغم من أنني ابن سائق سيارتكم السابق.. أليس كذلك؟!

بالكاد خرج صوت شريكه، مترنحا كجسده، وهو يقول، فيما يشبه الهمس:

- مطلقا... لم أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية مطلقا.

هب من خلف مكتبه في حركة صارمة، وهو يقول:

ابن سائق سيارتكم الآن يمتلك سيارة، تفوق سيارتكم فخامة وسعرا.. ابن سائق سيارتكم صار أحد أكبر رجال الأعمال.

حاول شريكه أن ينهض في صعوبة، مغمغما في تهالك:

- هل.. هل كنت تخطط لهذا منذ البداية؟!

تألقت عيناه ببريق الظفر، وهو يجيب:

- هل رأيت فضيلة الصبر؟!

رفع شريكه إليه عينين مغرورقتين بالدموع، وهو يقول:

- ألم تسمع أنت عن فضيلة الصدق؟!..

تابعه ببصره، وهو يتجه: مستسلما ومترنحا، إلى خارج المكتب، وأدهشه أن يكون رد فعله لكارثة كهذه، أقل مما كان ينتظر، فقال في حدة شرسة:

- وإياك أن تحاول الاستعانة بالقانون.. كل شيء هنا قانوني تماما.

توقف شريكه لحظة، عند باب المكتب، ثم التفت إليه في بطء، قائلا:

- بالنسبة للقانون الأرضي، وليس قانون السماء.

صمت لحظة، لم يستوعب خلالها الأمر، ثم انفجر ضاحكا، وهو يهتف:

- انتظره حتى يصدر حكمه إذن.

هر شريكه رأسه في بطء، وشعر هو بالحنق؛ لأن تلك النظرة كانت تحوي من الشفقة، أضعاف ما حملته من الغضب أو الانكسار...

ولهذا فقد أشاح بوجهه، وضم شفتيه في قوة، حتى غادر شريكه المكان..

وفي سعادة ظافرة، هبط إلى حيث تنتظره سيارته الفاخرة، التي يقودها دوما بنفسه، وقبل أن ينطلق بها، ألقى نظرة ساخرة على شريكه، الذي يجلس في سيارة أسرته القديمة، دافنا وجهه بين كفيه..

وكم شعر هو بالسعادة، وهو ينطلق بالسيارة..

لقد كان شريكه يبكي..

حتمًا يبكي..

وفي سخرية، غمغم:

- قانون السماء؟!.. يا له من ساذج!

راح ينشد أغنيته المفضلة في سعادة وظفر، وهو سعيد بما استعاده من ذكريات انتصاره، و..

وفجأة، ظهرت تلك السيارة الكبيرة..

وبكل قوته ضغط فرامل سيارته..

وبصرير قوى، راحت السيارة تنزلق، وإطاراتها تصارع أسفلت الشارع لتتوقف.. ولجزء من الثانية، تصور أنه قد نجا..

ولكن تلك السيارة الكبيرة ارتطمت بالركن الخلفي الأيسر للسيارة، فدارت السيارة حول نفسها، وهوت في حفرة بناء واسعة، على جانب الطريق..

وقبل أن يعتدل جسده داخلها، اشتعلت فيها النيران...

حاول أن ينتزع جسده من مقعده، ولكن النيران حاصرته في سرعة مخيفة..

وشعر بالنار تحرق جسده، وأطرافه، ووجهه..

وكانت الآلام رهيبة..

رهيبة..

رهيبة فوق كل تصور..

وبكل قوته وآلامه، راح يصرخ..

ويصرخ..

ويصرخ..

ثم فجأة، وجد نفسه وكأنه يفيق من غيبوبة، وينتفض في قوة..

واتسعت عيناه عن آخرهما..

إنه داخل سيارته..

ينطلق بها في سرعة..

وعلى الطريق ذاتها..

ولكن كيف؟!..

ماذا عن تلك الآلام الرهيبة؟!..

آلام النار..

إنه لم يشعر بما يفوقها ألما، في حياته كلها، مما يؤكد أنها لم تكن حلمًا..

لقد كانت حقيقة..

ولكن كيف؟!

ثم فجأة، ظهرت تلك السيارة الكبيرة..

وبكل قوته ضغط فرامل سيارته..

وبصرير قوى، حاولت السيارة أن تتوقف..

ومال هو بعجلة القيادة إلى أقصى اليمين..

ولكن السيارة الكبيرة ارتطمت بالركن الخلفي الأيسر لسيارته..

وهوت السيارة في حفرة البناء الواسعة..

واشتعلت فيها النار..

وتماما كما حدث في المرة الأولى، حاول أن يخرج من السيارة، ولكن النيران حاصرته، وراحت تلتهم جسده وأطرافه ووجه بلا رحمة..

وكانت الآلام رهيبة..

رهيبة..

أبشع آلام اختبرها في حياته..

فصرخ..

وصرخ..

و...

وفجأة، صار مرة أخرى داخل سيارته، ينطلق بها في سرعة..

ولكن كيف؟!..

إنه مازال يشعر بتلك الألام الرهيبة، وإن كان جسده سليما معافى!!..

ماذا يحدث له؟!..

ماذا؟..

اتخذ قرارا فوريا، بتخفيض سرعة سيارته، حتى لا يتكرر ما حدث..

لو أنه بالفعل حدث..

وضغط فرامل السيارة..

ولكن الفرامل لم تستجب..

ضغطها مرة..

وثانية..

وثالثة..

وظهرت تلك السيارة الكبيرة..

في هذه المرة صرخ، قبل حتى أن يحدث الارتطام..

وبكل قوته أدار مقود السيارة إلى اليمين..

ولكن الارتطام حدث..

وعلى نفس النحو المتكرر..

وسقطت السيارة في الحفرة..

واشتعلت فيها النيران..

وكانت الآلام رهيبة..

أبشع من كل ما يمكن تصوره!!..

وفي أعماق نفسه، وهو يصرخ من فرط الآلام الرهيبة، تمنى لو يموت؛ لينتهي هذا العذاب الرهيب..

ولكنه فجأة، وجد نفسه في سيارته مرة أخرى..

وظهرت السيارة الكبيرة..

وسقطت سيارته..

وراح جسده يحترق بآلام بشعة، وهو يصرخ، ويصرخ، ويصرخ..

ولكن صرخاته هذه المرة كانت أكثر قوة..

هذا لأنه يعلم أن هذا العذاب سيتكرر مرات ومرات..

وفي كل مرة سيحترق جسده..

وستكون الآلام بشعة رهيبة..

ولا نهائية..

ويا له من خلود رهيب..

وعندما وجد نفسه داخل سيارته مرة أخرى، شعر بالرعب من اللحظة الأولى..

كل شيء سيسير على الوتيرة نفسها، ولن يمكنه السيطرة على شيء؟..

شيء..

أي شيء..

سيبقى هكذا أبد الدهر..

تسقط السيارة..

وتشتعل..

ويصرخ هو من آلام لا تطاق..

وعندما ظهرت السيارة الكبيرة، أدرك تماما أنه قد حسب حساب كل شيء، وظفر بكل ما أراد في الدنيا، ولكنه أهمل عاملا واحدا في حساباته..

القانون..

قانون السماء.

☆ ☆ ☆ ☆

سوبرمان..

لم يتوقف (سمير) عن الارتجاف، من فرط الحماس والانفعال، منذ غادر موقع عمله، وحتى بعد أن عاد إلى منزله، وأغلق بابه خلفه في إحكام..

وبأصابع مرتجفة، أخرج من طيات ثيابه تلك الزجاجة المعدنية الصغيرة، التي سرقها من موقع الحفر، دون أن يشعر به زملاؤه..

كان يعمل في هيئة الآثار، ويشارك في كشف مقبرة جديدة، تبعد ثلاثة كيلو مترات، جنوب أهرامات (الجيزة)، عندما عثر على هذه الزجاجة..

زجاجة معدنية صغيرة، مختومة بإحكام، ومنقوش عليها شعار، لم ير مثله من قبل قط..

بل الواقع انه لم يتم أبدا العثور على زجاجات معدنية، أيا كان حجمها، في أية مقبرة فرعونية من قبل..

هذا لا يتفق مع طبيعة الحضارة الفرعونية..

ولا حتى مع منجزاتها..

ولكن ما كان يدهشه أكثر، هو ذلك النقش..

نقش محفور بإتقان مدهش، وكأنما صنعته آلة حفر ليزرية دقيقة..

نقش لرمز الإله (ست)..

إله الشر، لدى قدماء المصريين..

ولأن هذا الكشف قد بدا له لا يقدر بثمن، ولما كان صغير الحجم، لا يمكن أن يفتقده أحد، أو يتصور حتى وجوده، فقد دسَّه خفية في ثيابه..

وها هو ذا معه وحده في مسكنه..

قلب الزجاجة بين يديه في انبهار، وقال لنفسه: إنها حتما أثر نادر، يمكن أن يساوى ثروة كبيرة..

وفي حذر، رج الزجاجة بالقرب من أذنه..

إنها تحوي حتما سائلًا ما..

أهو الزئبق الأحمر، الذي يتحدثون عنه؟!

ربما..

لو أن الأمر كذلك، فستتضاعف قيمتها مرتين على الأقل..

ويا لها من غنيمة!!..

تحسس تلك البثور، التي تملأ وجهه، وهو يتخيل نفسه يحصل على المال الوفير، من بيعه هذه الزجاجة، ويعالج تلك البثور، التي هاجمت بشرته منذ عامين، وجعلته يبدو قبيحا على هذا النحو..

ومرة أخرى رج الزجاجة، وراح يحلم بالثروة التي سيجنيها منها، قبل أن يتحسس نقش الإله (ست) في اهتمام كبير..

ضايقه ذلك الغبار، الذي التصق بأصابعه، فنهض يحضر منشفة، دعك بها الزجاجة في حذر، حتى يزيل ما علق عنها من غبار، و..

وفجأة، ارتجت الزجاجة في يده، فانتفض جسده، وألقاها بحركة غريزية أرضا.. وارتطمت الزجاجة بالأرض..

ووثب هو، من فرط الدهشة والذعر.

فارتطام الزجاجة بالأرض، أصدر رنينا معدنيا، أشبه بقطعتين من المعدن الفارغ، ترتطمان ببعضهما البعض..

ثم انتفض جسده بمنتهى القوة، عندما انفتح غطاء الزجاجة دفعة واحدة، وتصاعد منها دخان كثيف..

ولثوان، حدق في ذلك الدخان، وبدا له أنه دخان أحلامه التي تبخرت..

ثم اتسعت عيناه بكل رعب الدنيا..

فالدخان المتصاعد من الزجاجة راح يتجمع، ويتشكل في هيئة شبه بشرية، جعلته يقفز جالسا بجسده كله على المقعد، وهو يطلق شهقات متتالية.

وفي سرعة، ظهر أمامه ذلك الكائن..

كائن طويل، أصلع الرأس، أزرق البشرة، كث الحاجبين، هتف فور اكتمال تكوينه:

- أخيرا تحررت.

حدق فيه (سمير) بكل ذهول الدنيا، وهو يغمغم:

- مستحيل..

التفت ذلك الكائن شبه البشرى إليه، ورماه بنظرة كاللهب، وهو يقول:

- أأنت إنسي؟!

ارتجف جسد (سمير) وصوته، وهو يغمغم بصوت مختنق:

- وأنت جني؟!

حدجه الكائن شبه البشرى بنظرة طويلة، دون أن يجيب، فانكمش (سمير) في مقعده، وهو يقول مرتجفا:

- أنت جني حتما.. كنت مسجونا في هذه الزجاجة الصغيرة، وأنا حررتك.

مرة أخرى لم يعلق ذلك الكائن شبه البشرى، وهو يواصل التحديق في (سمير)، الذي شعر به يغوص في أعمق أعماقه، فازداد انكماشا، وهو يتمتم في صعوبة:

- لقد شاهدت هذا في الكثير من أفلام السينما، منذ كنت طفلا.. أنت جنى، وتدين لي بتحريرك، وستنفذ المطالب الثلاثة، التي سأطلبها منك.. أليس كذلك؟!

صمت ذلك الكائن شبه البشرى لحظات أخرى، دون أن يرفع عينيه المخيفتين عن (سمير)، قبل أن يعتدل فجأة، قائلا في صوت عميق:

- جني.. ومطالب ثلاثة.. يبدو أنك تعلم الكثير بالفعل.

شعر (سمير) بقلبه يخفق في قوة، وهو يهتف:

- هي حقيقة اذن؟!

هز الكائن كتفيه، دون أن يجيب، فهتف (سمير) في انفعال:

- رباه!.. من دون العالم أجمع، أعثر أنا عليه.

عقد الكائن ساعديه أمام وجهه، وهو يقول في صرامة:

- ولكن احذر ما تتمناه.. فقد يتحقق.

اتسعت عينا (سمير) في دهشة، وهو يهتف:

- كيف عرفت هذا؟!

ابتسم الكائن ابتسامة غامضة، قائلًا:

- أنك قرأت العبارة هذا الصباح؟!

هتف (سمير) في انبهار:

- وتعلم هذا أيضا؟!

شد الكائن قامته، وشد من عقد ساعديه أمام صدره، وهو يسأله في صرامة:

- ماذا تطلب؟!

لو أنك طرحت هذا السؤال على (سمير)، قبل ساعة واحدة، لكتب لك لائحة طويلة بما يريد ويحلم..

ولكن عندما طرح عليه الكائن السؤال، انعقد لسانه، وتصلب مخه ولم يدر ماذا يمكن أن يطلب..

إنها ثلاثة مطالب فقط، وينبغي ألا يضيعها هباء..

وهي فرصة لا تتاح- لو أتيحت للمرء، سوى مرة واحدة في الدور..

فماذا يطلب؟!..

بدا الكائن متململا، وهو يقول في صرامة أخرى:

- لن أبقى هنا إلى آخر الدهر.

قفز المطلب الأول إلى رأس (سمير)، فهتف في سرعة، وهو يشير

إلى وجوه:

- هل يمكنك أن تزيل هذه البثور؟!

ابتسم الكائن ابتسامة لم ترق له، وتقدم منه، ومرر يده على وجهه في بطء، حبس معه (سمير) أنفاسه، حتى قال الكائن متراجعا:

- ما المطلب الثاني؟

رفع (سمير) يده، يتحسس وجهه في انفعال، وشعر بجسده كله يرتجف، وهو يسرع إلى أقرب مرآة، ويلقي نظرة على وجهه فيها..

وكاد قلبه يرقص فرحا..

- البثور زالت عن وجهه تماما..

لقد عادت بشرته نقية، وملامحه وسيمة متناسقة..

- هل ستقضى وقتك كله أمام المرأة؟!..

قاطعه ذلك الصوت الصارم، للكائن شبه البشرى، فالتفت إليه هاتفا:

- كيف أشكرك؟

أجابه الكائن في صرامة:

- المطلب الثاني.

انعقد حاجبا (سمير)، وهو يفكر فيما ينبغي أن يكون عليه مطلبه الثاني؟!..

المال؟!

أم القوة؟!..

ام السلطة؟!

حاول الاستقرار على أحد المطالب الثلاثة، قبل أن تبرز في ذهنه فجأة فكرة مجنونة، ترجمها إلى سؤال ألقاه على الكائن:

- هل يمكنك تحقيق أي مطلب؟!

أجابه الكائن في بطء:

- إلى حدٍ ما.

شد (سمير) قامته، وهو يقول:

- وماذا لو أخبرتك أنني أريد أن أصبح (سوبرمان)؟!

التفت إليه الكائن بنظرته الفاحصة، وهو يتساءل:

- ألن تكتفي بالمال، أو القوة، أو السلطة؟

لم يتساءل (سمير) كيف علم الكائن، بخيارته الأساسية، وهو يجيب في انفعال:

- إذا ما أصبحت مثل (سوبرمان)، فسأحوز كل هذا دفعة واحدة.. سأمتلك قوته، وبها أفرض سلطته، ويكون لي كل المال.

صمت الكائن متطلعا إليه لحظات، قبل أن يسأله:

- بزيه المميز؟!

هتف (سمير) في نشوة:

- بالتأكيد.

أشار الكائن إشارات مبهمة في الهواء، وشعر (سمير) بألام لحظية في جسده، ثم زال كل الألم فجأة..

وبكل انبهار الدنيا، راح يعدو نحو المرأة، ليطالع هيئته الجديدة..

الجسد الممشوق..

العضلات البارزة..

الزي الأزرق والأحمر..

وبكل انفعال الدنيا، راح يصرخ:

- أنا (سوبرمان).. أنا (سوبرمان)..

اتجه نحو النافذة، متسائلا في حذر:

- (سوبرمان) يملك القدرة على الطيران، أليس كذلك؟!

غمغم الكائن، بابتسامته التي لا توحي بالارتياح:

- بالتأكيد.

تردد (سمير) لحظة، ثم دفع جسده إلى الأمام، و..

ولدهشته البالغة، وجد نفسه بالفعل يطير..

وبكل سعادة الدنيا، هتف:

- احترس أيها العالم.. لقد صار (سوبرمان) حقيقة..

وثب عبر النافذة، وانطلق يطير في سماء (القاهرة) الكبرى، منتشيًا بقوته الجديدة، وبمتعة التحليق في سماء البلاد.. وإلى جواره، انطلق ذلك الكائن طائرا أيضا، وهو يتساءل:

- ممتع.. اليس كذلك؟

هتف (سمير):

- كلمة (ممتع) لا تكفي للتعبير عما أشعر به يا هذا.

واصل كلاهما الطيران لنصف ساعة كاملة، شعر (سمير) خلالها بأنه يحيا أسعد لحظات عمره..

ولكن الشمس توشك أن تشرق..

وهو غير مستعد للإعلان عن وجوده بعد..

ولهذا فقد استدار يبحث عن طريق العودة إلى منزله، فسأله الكائن، الذي يطير إلى جواره:

- هل سئمت التحليق؟!

أجابه (سمير) في نشوة:

- سأحلق كثيرا فيما بعد، أما الآن، فأنا أريد الهبوط.

توقف الكائن فجأة، وهو يقول:

- لك هذا.

مع قوله، فقد (سمير) قدرته على الطيران فجأة، وبدأ جسده يهوى من حالق، وهو يهتف:

- ماذا فعلت؟!

أجابه الكائن، بنفس الابتسامة غير المريحة:

- إنه مطلبك الثالث والأخير.

قالها، وأطلق ضحكة شامتة شيطانية، وهو ينطلق مبتعدا، و(سمير) يهوى، ويصرخ.. ويصرخ..

بلا مجيب..

«هل قرأت ذلك الخبر العجيب يا (ممدوح)..»

قالها الدكتور (وجدي) مفتش الآثار، لمساعده الشاب (ممدوح)، وهو يناوله صحيفة يومية، مستطردا:

- شخص سقط من السماء، وهو يرتدى زي (سوبرمان)، وتهشم جسده تماما، حتى إن أحدا لا يستطيع تحديد هويته، ولا حتى من أين سقط!!

ابتسم (ممدوح)، وهو يقول:

- ربما سقط من أحلامه، فهو لا ريب أحد المجانين، الذين يحلمون بأن يمتلكوا قدرات (سوبرمان) الخرافية..

ضحك الدكتور (وجدي)، وهو يقول:

- ومن منا لم يحلم بهذا في طفولته.

ثم أشار بيده، مردفا:

- دعنا من هذا الجنون، ولنواصل عملنا... هيا.

غمغم (ممدوح) مبتسما:

- خلفك يا دكتور.

التقط نفسا عميقا، وهو يتبع أستاذه، متحسسا تلك الزجاجة المعدنية الصغيرة، التي سرقها خفية من موقع الحفر.. الزجاجة المعدنية، التي تساوى حتما ثروة؛ لأنها مزينة بنقش دقيق لشعار الإله (سِت)..

إله الشر.

☆ ☆ ☆ ☆

نظرة يا ست..

من المؤكد أنني لن أحصل على جائزة (نوبل)، التي طالما حلمت بها، من خلال هذا الكشف العلمي الرهيب..

بل قد لا أجد الفرصة لأبلغ العالم به أيضا..

وربما أبدا..

كل ما أستطيعه الآن، هو أن أستعيد ذكرى تلك الأحداث، التي قادتني إلى هذا..

البداية لم تكن بعيدة..

البداية كانت منذ يوم واحد..

وفي معمل الدكتورة (لطيفة)..

و(لطيفة) هذه زميلة دراسة، تخرجت معي في نفس الدفعة، ولكن مع فارق بسيط...

فارق صفر واحد..

هي كانت الثالثة على الدفعة..

وأنا الثلاثين على الدفعة..

ألم أقل لكم إنه فارق صفر واحد..

وذلك الصفر لم يصنع فارقا يذكر، في حياتنا العملية..

كان المفترض أن تنضم هي إلى هيئة التدريس، في قسم الفيزياء التجريبية بكلية العلوم، التي تخرج كلانا منها..

وأن ألتحق أنا بالمركز القومي للبحوث..

ولكنكم تعرفون الأحوال في بلادنا..

الوساطة والمحسوبية استوليتا على الوظيفة المفترضة في هيئة التدريس، وجاءت (لطيفة) للعمل مثلي، في المركز القومي للبحوث..

وكلمة بحوث هذه كلمة شرفية على الأرجح؛ لأن ما نقوم به من عمل في المركز، يقل عما يمكن أن يقوم به طالب مرحلة ثانوية، في معمل مدرسة محترمة، في (أوروبا) أو (أمريكا)، ولقد اعتدت هذا واستسلمت له، ما دمت أتقاضى مرتبي، في بداية كل شهر.

ولكن (لطيفة) لم تستسلم..

كانت تعلم أن أحدا لن يكافئها، ولو أفنت نفسها في العمل، وعلى الرغم من هذا فقد كانت تعمل في دأب ونشاط واهتمام، كما لو أنها تسعى لنيل جائزة (نوبل) في

العلوم..

أنا أيضا أحلم بجائزة (نوبل)..

ولكنني أعترف بأنني لم أسع إليها..

لم أبذل من الجهد ما يمكن أن يوصلني، حتى إلى حضور احتفالاتها..

ودعوني أعترف، في هذه اللحظات بالذات، أنني طالما شعرت بالغيرة من (لطيفة)..

وبالغضب عليها أيضا..

وكان أكثر ما يثير غيرتي وغضبي، هو أنها امرأة!!..

فمنذ شبابي، وأنا أتساءل: لماذا تبذل النساء كل هذا الجهد في التعليم؟!..

لماذا لا تكتفين بالمنزل والمطبخ والأولاد؟

لماذا؟

كان هذا شعوري نحو (لطيفة) منذ عرفتها..

ولكن هذا الشعور تضاعف ألف مرة، منذ يوم واحد..

منذ التقيت بها بالمصادفة، في أحد ممرات المبنى، فاستوقفتني هامسة في انفعال، يموج بالفرح:

- (مصطفى).. لدى سر، أريد أن أطلعك عليه.

سألتها في حذر:

.. أي سر؟؟

همست في أذني:

- تعال إلى معملي، وسأطلعك عليه.

كنت أشعر دوما بكل التوتر، كلما دخلت معمل (لطيفة) النظيف والمرتب دوما.. والأهم أنه دائما ما يحوي ابتكارا جديدا..

وهذا يستفزني للغاية..

ليس لأن معملي، على عكسها، صورة كاملة للفوضى، ولكن لأنه نادرا ما يحوي أية ابتكارات جديدة..

أو بمعنى أدق.. من المستحيل أن يفعل..

كل ما يخرج من معملي هو تطويرات بسيطة، لمبتكرات موجودة بالفعل..

ألا يكفي هذا لغضبي منها؟!..

المهم أنني كتمت كل مشاعري، ولحقت بها إلى معملها، وهناك تضاعفت بهجتها، وتضاعف انفعالها، وهي تقول:

- فعلتها يا (مصطفى)... فعلتها.

سألتها في حذر متوتر:

- ما تلك التي فعلتها يا (لطيفة)؟!..

لهثت من فرط الانفعال، وهي تجيب:

- كسرت الحاجز.

تراجعت قليلا؛ لألقى نظرة مندهشة عليها، وأنا أغمغم:

- أي حاجز؟!.. هل أتيت بي إلى معمل فوازير رمضان؟!

ضحكت ضحكة قصيرة سريعة، قبل أن تستعيد انفعالها، قائلة:

- هل تذكر تلك الرواية، التي قرأناها أيام الكلية، والتي كانت تدور المغامرة فيها، في عالم يحيط بنا، ولكنه غير منظور؟!

قلت في توتر:

- الواقع أنني لم أكملها، و..

قاطعتني وكأنها لم تسمع جوابي:

- لقد أثبت أن هذا حقيقي.

تراجعت كالمصعوق، وأنا أقول:

- أثبت ماذا؟!

بدت جذلة كالأطفال، وهي تصفق بكفيها، قائلة:

- أثبت وجود العالم غير المنظور.

سألتها في حيرة، لم تخل أيضا من الحذر:

وكيف يمكن إثبات شيء كهذا؟!

وثبت تلتقط منظارا كبير الحجم، تحيط بعدستيه قطعة من زجاج أحمر اللون، وله سمك قناع غاز، وهي تقول:

- بهذا.

التقطت المنظار من يدها، متسائلا في توتر:

- وما هذا بالضبط؟!

أجابت بنفس الجدل والانفعال الطفوليين:

- طيف ضوئي خاص، لم يتوصل إليه أحد من قبل.. تستطيع أن تطلق عليه اسم الأشعة فوق فوق البنفسجية، أو الأشعة فوق البنفسجية الخارقة.. اضغط ذلك الزر، في جانب المنظار، ثم ألقِ نظرة عبره، وستدرك ما أعنيه.

سألتها في حذر أكثر وأنا أضع ذلك المنظار على عيني:

- وهل سأرى عندئذ ذلك العالم غير المنظور؟

أشارت بسبابتها مجيبة:

.. وبكل وضوح..

ترددت لحظة أخرى، ثم ضغطت ذلك الزر، في جانب المنظار، قبل أن أتراجع في حركة حادة كالمصعوق..

فما إن ضغطت ذلك الزر، حتى رأيته..

رأيت ذلك العالم غير المنظور، وفي وضوح تام، كما أكدت (لطيفة)..

عالم له سمات تختلف تماما عن عالمنا..

سماء حمراء..

وجبال بلون الدم..

ونهر يجري، بمياه خضراء لامعة متألقة..

وأطياف داكنة، تسير هنا وهناك..

ولم أحتمل ما هو أكثر من هذا.. انتزعت المنظار عن عيني، بعد نظرة واحدة، فعاد معمل (لطيفة) يتبدى أمام بصري مرة أخرى، ورأيتها تهتف في فرح:

- أرأيت؟!

غمغمت وانا أعيد المنظار إليها:

- إنه عالم مخيف.

قالت في سعادة:

- المهم أنه موجود، وأننا نستطيع رؤيته.

غمغمت في عصبية:

هذا لو احتملنا رؤيته.

عادت تصفق بكفيها جذلا، وهي تقول:

- المهم أن نراه، فنحصل على جائزة (نوبل).

أغاظني استخدامها لصيغة الجمع، في (نحصل) هذه، وأغاظني أكثر يقيني من أن ذلك الكشف، قادر على أن يمنحها جائزة (نوبل) للعلوم بلا منازع..

حتى حلمي، ستحققه هي..

لماذا لم تتزوج، وتقضى وقتها في تربية الأطفال؟!..

لماذا؟

من حسن حظي أنها لم تلمح ذلك المقت في ملامحي، وهي تواصل في سعادة:

- أنت زميل دراستي يا (مصطفى)، وأكثر شخص أثق به هنا، ولهذا فأنت الوحيد الذي أطلعته على سر كشفي العلمي.. كل التجارب قمت بها وحدي، وكل النتائج لا توجد إلا على (اللاب توب) الخاص بي..

تضاعف حنقي وسخطي، مع فرحتها العارمة، وهي تستدير إلى (اللاب توب)، مكملة في حماس:

- هناك فقط خطأ بسيط، ما إن أقوم بإصلاحه، حتى يمكنك اعتبار جائزة (نوبل) على جدار مكتبي.

شعرت بالغيظ أكثر، واشتعلت نفسي غضبا، وأنا أتخيلها في حفل توزيع جوائز (نوبل)، وهي تتسلم الجائزة في فخر، وأنا أجلس وسط الحضور، متظاهرا بالسعادة، ومضطرا للتصفيق في حرارة، و..

ودفعتها..

أقسم أن هذا كل ما فعلته..

دفعتها..

لم أشعر بأن دفعتي قوية، ولكنني رأيتها تندفع إلى اليمين، وتفقد توازنها، ثم تمد يدها إلى، تنشد المساعدة، فلما لم تتلقها، وأنا أحدق فيها سلبيا في بلادة، اختل توازنها..

وسقطت..

ومن سوء حظها، أن ارتطم جانب رأسها، بحافة مائدة البحث، في قوة شديدة، قبل أن تسقط أرضا، وتسكن حركتها تماما..

ومع خيط الدم، الذي يسيل من بين شفتيها، أيقنت أنها قد لقيت مصرعها..

ولثوان، وقفت أحدق فيها ذاهلًا..

(لطيفة) ماتت!!..

(لطيفة)، عبقرية الدفعة، تلقى مصرعها بهذه البساطة!!..

لثوان وقفت جامدا، قبل أن أنفض الذهول عن رأسي، وأتحرك في سرعة..

حملت (اللاب توب) الخاص بها، وذلك المنظار العجيب، وتسللت خارجا، عبر الممر الخالي، في هذا الوقت، الذي تغرب فيه الشمس، ودلفت إلى معملي، وأغلقت

بابه خلفي في إحكام..

ولخمس دقائق كاملة، رحت ألهث، كما لو أنني كنت أعدو لعدة كيلومترات..

هدأت أنفاسي، وهدأ عقلي، وبدأ يستعيد قدرته على التفكير..

(لطيفة) ماتت، ولا أحد يعلم شيئا عن كشفها سواي، وكل معادلاتها على هذا (اللاب توب)، فماذا تبقى؟

سرحت بذهني؛ لأرى نفسي أتسلم جائزة (نوبل)، بكل الفخر، والكل يصفق في حرارة..

وعندما أعود إلى (مصر)، سيتم استقبالي استقبال الفاتحين..

ويا له من حلم، أوشك أن يتحقق..

ولكن هناك ما يعوق تحقيقه..

لابد وأن أدرس أولا معادلات (لطيفة)، في محاولة لفهمها؛ حتى يمكنني مناقشتها، عندما أتقدم لنيل الجائزة..

ولابد لي من أن أختبر المنظار مرة أخرى..

على الرغم من كل مخاوفي، لابد وأن أفعل هذا..

التقطت المنظار، واسترخيت في مقعدي، وقاومت تلك الارتجافة، التي سرت في جسدي، ثم وضعت المنظار على عيني، وضغطت ذلك الزر في جانبه..

مع كل مخاوفي، لا ينبغي لي أن ألقى مجرد نظرة واحدة، على ذلك العالم المخيف..

العالم غير المنظور..

على أن أنظر إليه طويلا؛ حتى يمكنني وصفه، إذا ما ناقشتني الصحافة، أو ناقشني بعض العلماء حول المنظار..

بدأ ذلك العالم يظهر أمام عيني، كئيبا مخيفا، بشمسه الحمراء، وجباله التي تشبه كتلا من الدم، ونهره الأخضر اللامع..

وتلك الظلال..

لأول مرة، أنتبه إلى أنها ليست مجرد ظلال..

إنها تكوينات شبه بشرية..

تكوينات تتداخل مع بعضها البعض، وتنفصل، في تناغم عجيب..

كنت مستغرقا بكل حواسي في مراقبة ذلك العالم المخيف، حتى إنني لم أشعر بباب مكتبي يفتح، ولا بوقع الأقدام التي اقتربت منى، حتى سمعت صوتا أنثويا غاضبا، يقول بكل مقت الدنيا:

.. هل تصورت أنك قد قتلتني؟

كان صوت (لطيفة)، ذلك الذي جعل جسدي كله ينتفض في عنف، وأستدير إلى مصدر الصوت، وأنا أرفع يدي لنزع المنظار عن عيني، عندما أردفت هي بنفس المقت:

.. أخبرتك أن تلقى نظرة واحدة.. ولكنك كعهدي بك.. دوما فاشل.

شعرت بسبابتها تسبقني إلى المنظار، ثم شعرت بتلك الفرقعة، وكأنها قد تفجرت في قلب رأسي مباشرة..

ثم فقدت الوعي دفعة واحدة..

وعندما استعدت وعيي، كان ذلك العالم ماثلا أمام عيني..

العالم المخيف، غير المنظور..

ولكنه بالنسبة لي، كان منظورا تماما..

وبكل رعبي، رفعت يدي، محاولا نزع ذلك المنظار..

ثم تضاعف رعبي ألف ألف مرة..

فأنا لم أكن أرتدى ذلك المنظار..

ولست أرى ذلك العالم المخيف عبره..

إنني أعيش فيه..

بوسيلة ما، صرت جزءا منه.

وتلك الظلال الرهيبة تقترب مني، وتحاصرني، وأشعر بها معادية تماما..

لست أدرى ماذا يمكن أن تفعل بي، ولكنني شعرت معها بالرعب..

وحاولت أن أفر..

أختبئ في أي مكان..

ولكن تلك الظلال كانت تعثر على دوما..

وتحاصرني..

والآن، وبعد يوم كامل، بدأ جسدي وإرادتي ينهاران..

إنها تحاصرني، ولست أدرى ماذا ستفعل بي، ولكنني لم أعد قادرا على مواصلة الفرار..

وبينما يضيق حصارها من حولي، رحت ألعن بداية كل هذا..

النظرة..

نظرة واحدة.

☆ ☆ ☆ ☆

ليس في كل مرة..

يا له من يوم فقيرا..

دارت هذه العبارة في ذهن (جمال)، وهو يقود سيارة الأجرة التي يملكها، والتي يسدد أقساطها بالكاد، محاولا استخلاص بعض ما يأتيه منها؛ للإنفاق على أسرته..

والإيراد اليومي يكفي لهذا وذاك في المعتاد..

وبالكاد..

ولكن اليوم يختلف..

إنه يقطع المدينة طولا وعرضا، دون أن يحظى سوى براكب واحد أو راكبين على الأكثر..

ولكن ها هو ذا زبون يشير إليه..

شاب نحيل، يرتدى منظارا طبيا، ويحمل حقيبة جلدية أنيقة..

يا فرج الله..

كم تمنى، وهو يتوقف إلى جواره، لو أنه يستهدف مكانا بعيدا يضيف حصيلة معقولة، إلى ما حصل عليه من إيراد ضعيف..

وفي لهجة مهذبة، مال الزبون على النافذة الأمامية اليمني، يسأله:

- مدينة السادس من أكتوبر يا أسطى.

تهللت أساريره، وهو يجيب:

- أي مكان تريده يا باشا.. تفضل.

فتح الشاب باب السيارة الخلفي الأيمن، ودلف إلى السيارة..

وفي نفس اللحظة، فتح شيخ وقور، أشيب الشعر واللحية، هادئ الملامح إلى حد كبير، الباب الخلفي الأيسر، وجلس إلى جوار الشاب، وهو يبتسم ابتسامة جميلة..

وبقدر ما اندهش (جمال) مما حدث، إلا أنه لم يعارض..

صحيح أنه لم يلمح ذلك الشيخ، عندما توقف أمام ذلك الشاب، ولكن الشاب لم يعترض بحرف واحد، مما يوحي بأنهما معا، فأدار (جمال) محرك السيارة، وانطلق في طريقه، وهو يمنى نفسه ببندير كبيرة، تنهى اليوم نهاية سعيدة..

وبينما يتجاوز شارع الهرم، سأل ذلك الشيخ، الذي أراحته ابتسامته كثيرا:

- هل ستذهبان إلى المكان نفسه؟!

اكتفى الشيخ الوقور باتساع ابتسامته الطيبة، في حين تلفت الشاب حوله في دهشة، وهو يقول:

- معًا؟!.. ماذا تقصد يا أسطى؟!

أجابه (جمال)، وهو يلقى نظرة على الشيخ، عبر مرآة السيارة الداخلية:

- أنت ووالدك.

بدا الشاب عصبيا، وهو يقول:

- وما شأنك بوالدي؟

ارتبك (جمال)، وهو يقول:

- معذرة.. تصورت أن هذا الشيخ والدك.

مرة أخرى تلفت الشاب حوله في عصبية، وهو يقول:

- أي شيخ؟!

امتلأت نفس (جمال) بالدهشة، وهو يجيب:

الشيخ الجالس إلى جوارك.

تراجع الشاب، حتى التصق بالنافذة اليسرى، وبدا أكثر عصبية، وهو يتساءل:

- أي شيخ يا هذا؟!

انعقد حاجبا (جمال) في توتر، وهو يجيب، في شيء من الحدة لم يقصده:

- الشيخ ذو الشعر الأشيب، واللحية البيضاء.

اتسعت عينا الشاب، وهو يحدق فيه في رعب، في حين بدا وجه الشيخ منيرا، وهو يقول في لهجة شديدة الهدوء:

- لن يمكنه أن يراني.

هتف (جمال):

- ماذا؟!

واصل الشيخ، وكأنه لم يسمعه:

- أنا هنا من أجلك، ووحدك يمكن أن تراني أو تسمعني.

انعقد حاجبا (جمال) أكثر، وهو يغمغم:

.. آه.. الأمر كذلك إذن.

استعاد ذهنه واقعة مماثلة، حدثت مع زميل له، منذ أقل من عام.. راكبان استقلا سيارة زميله، وتظاهر أحدهما بأنه لا يرى الآخر، الذي ادعي أنه ملك الموت، أتى

لقبض روح زميله، وأن الآخر لن يراه أو يسمعه، وطلب منه أن يصلي، ويستغفر ربه، ويوصى زوجته، قبل أن يقبض روحه..

ومع إتقان الخدعة، صدقها زميله..

وفي انهيار شديد، تحدث إلى زوجته يوصيها ويودعها، ثم توقف عند أول مسجد صادفه، ودخله ليصلى لربه ويستغفر.

وعندما خرج من المسجد، كانت في انتظاره مفاجأة..

لم يجد سيارته..

المحتالان اللذان خدعاه، بلعبة ملك الموت هذه، استوليا على سيارته، أثناء وجوده في المسجد، وفرا بها..

تماما كما ينوى هذان أن يفعلا..

نفس اللعبة..

ونفس الاحتيال..

يالسخافتهما!!..

هل يتوقعان أن تنطلي عليه خدعة مكررة كهذه؟!..

ولكن التوتر مازال يملأ نفسه..

فماذا ينبغي أن يفعل، في موقف كهذا؟!..

لو أخبرهما بأنه قد كشف لعبتهما، فربما تحولا إلى الشراسة والعنف..

ربما قتلاه؛ للاستيلاء على سيارته..

ماذا ينبغي أن يفعل؟!..

قطع ذلك الشيخ تسلسل أفكاره، وهو يقول في يقول في هدوء:

- أنا هنا في مهمة خاصة.

قال (جمال)، محاولا مسايرة الأمر:

- لتقبض روحي.. أليس كذلك؟

هتف الشاب في عصبية، بلغت ذروتها:

- أنزلني هنا يا أسطى.. أرجوك.

تردد (جمال)، وهو يقول في حذر:

- هنا؟!.. في منتصف المحور؟!

هتف الشاب، في عصبية أقرب إلى الضراعة:

- أرجوك.

أدار (جمال) الأمر في ذهنه في سرعة..

- ولم لا؟

كوبري المحور مزدحم بالسيارات، ولا يمكنهما أن يؤذياه هنا، ولكن في الطريق إلى مدينة السادس من أكتوبر، فمن يدري؟!

حسم أمره، وتوقف إلى جانب الكويري، على الرغم من احتجاج السيارات من خلفه، فوثب الشاب من السيارة وثبا، وألقى إليه ورقة نقدية، تفوق قراءة عداد السيارة بمرات، وابتعد في خطوات أقرب إلى العدو، وكأنما يفرّ من مجنون، فتطلع (جمال) عبر مرآة السيارة، إلى ذلك الشيخ، وهو يسأله في عصبية:

- وماذا عنك؟

أجابه الشيخ في هدوء شديد، دون أن يتخلى عن ابتسامته:

- أخبرتك بأنني هنا في مهمة خاصة.

هتف به (جمال) في حدة:

- وأخبرتك أنني أعرفها.. أنت هنا لتقبض روحي.

هز الشيخ رأسه نفيا في بطء، وهو يجيب:

- لست ملك الموت لأفعل.

صاح به (جمال)، وقد نفد صبره:

- من أنت إذن؟!

بدا الشيخ هادئا، أكثر مما ينبغي، وهو يجيب:

- أنا هنا؛ لأطلب منك ترك هذه السيارة.

فغر (جمال) فاه في دهشة، وهو يحدق فيه، عبر مرآة السيارة الداخلية، مكررا في استنكار:

- أترك سيارتي؟!.. أهكذا تطورون الخدعة؟!

لم يبد على الشيخ أي تأثر لقوله، وهو يقول بنفس الهدوء، والابتسامة الطيبة:

- أتركها، قبل أن تكون هي سبيل موتك.

شعر (جمال) بالغيظ، من إصرار ذلك الشيخ على خدعته، وفكر في سرعة، عما ينبغي فعله، ثم قال في عصبية:

- لست أشعر بالارتياح لوجودك خلفي يا رجل.

قال الشيخ هادئا:

- موقعي لن يغير شيئا.

صاح فيه (جمال):

- ولكنني لا أشعر بالارتياح.

صمت الشيخ لحظة، قبل أن يسأله:

- وأين تريدني أن أجلس؟!

ربت (جمال) على المقعد المجاور له في حدة، وهو يجيب:

- هنا.

قال الشيخ، وهو يفتح باب السيارة المجاور له:

- كما تحب.

انتظر (جمال) في تحفز، حتى غادر الشيخ السيارة، وأغلق بابها خلفه، ثم ضغط دواسة الوقود بكل قوته..

وانطلقت السيارة مبتعدة..

عندئذ فقط، شعر بالارتياح..

لقد أفلت في أعجوبة، من محتالين خطيرين..

ومع انفعاله وتوتره، أطلق ضحكة عالية، وهو يهتف:

- ليس في كل مرة تفلح الخدعة.

ألقي نظرة على مرآة السيارة الجانبية، وأدهشه أن ذلك الشيخ ظلّ محتفظا بابتسامته الهادئة، وهو يتابع ابتعاده..

والسيارات كانت تمضي من حوله، غير عابئة بوجوده..

وهو غير عابئ بسرعتها..

وبكل دهشته، هتف (جمال):

- أي شيخ هذا؟

لم يواصل دهشته طويلًا، وهو يلقى الأمر كله خلف ظهره، ويواصل انطلاقه مبتعدا، وذهنه يتساءل..

عجيبة هي تصريفات القدر!..

كان يشكو من ضعف إيراده..

ثم حاول محتالان سرقة سيارته..

وانتهى الأمر بحصوله على ما يبتغى..

فر بحياته وسيارته من المحتالين..

وفاز بورقة مالية كبيرة، تغطى احتياجاته تماما..

ابتسم في ارتياح، وهو يلتقط هاتفه المحمول، ويطلب رقم زوجته، التي لم تكد تستجيب له، حتى هتف في مرح:

- لن تصدقي ما واجهته اليوم.

راح يروى لها في سرعة ما حدث، واستمعت هي إليه في رعب، قبل أن تقول بصوت يرتجف في شدة:

- تقول شيخا أشيب الشعر، أبيض اللحية، يبتسم ابتسامة تشعّ نورا؟!

ضحك قائلا:

- هكذا يتقن المحتالون لعبتهم في المعتاد.

هتف في رعب:

- ولكن هذا الشيخ كان هنا منذ لحظات.

توترت أعصابه في شدة، حتى كادت أصابعه تعتصر الهاتف، وهو يصيح بها:

- هنا أين؟!

أجابته في صوت، أكثر رعبا وارتجافا:

- كان هنا، قبل أن تتصل مباشرة، وأعطاني ورقة من فئة المائة جنيه، قال إنك أرسلته بها.

التفت (جمال) في حركة حادة، إلى حيث ترك الورقة المالية، التي ألقاها إليه ذلك الشاب، فلم يجدها في موضعها..

واتسعت عيناه في رعب..

ولكن هذا الرعب تضاعف ألف مرة، عندما سمع صوت الشيخ من خلفه، يقول:

- الحديث في الهاتف المحمول، خلال القيادة، يتسبب في نسبة عالية من الحوادث.

رفع عينيه مذعورا إلى مرآة السيارة الداخلية، وصعقه وجه الشيخ، وهو يبتسم تلك الابتسامة الهادئة..

واختلت عجلة القيادة في يده، من فرط الصدمة..

وكانت سيارة النقل الكبيرة تنطلق في سرعة، في الاتجاه المضاد..

ومع اختلال عجلة القيادة، اندفعت سيارته إلى الاتجاه العكسي..

وعندما أوقف ركاب السيارات سيارتهم، واندفعوا نحو حادث الارتطام البشع، كان سائق سيارة النقل يهتف:

- هو الذي اندفع فجأة إلى هذا الجانب.. لست مسئولا عما حدث.

ولكن، وعندما انتزعوا جسد (جمال) في صعوبة، من حطام السيارة، كان آخر ما سمعوه منه، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- لم تكن خدعة.

وعندما وصلت سيارة الإسعاف، لنقل جثته، كان هناك شيخ وقور، يراقب الموقف في هدوء، بشعره الأشيب ولحيته البيضاء، وابتسامته الطيبة الهادئة..

للغاية.

☆ ☆ ☆ ☆

صرخــة..

انطلقت تلك الصرخة العجيبة، تخترق أذني مجاهد، وتدفعه للقفز من فراشه مذعورا، بعد أن أيقظته من أعمق نوم حظي به منذ أكثر من شهرين.. وبكل انزعاجه تلفّت حوله..

كانت امرأته راقدة في الفراش، غارقة في نوم عميق، أدهشه أن تلك الصرخة المدوية لم تنجح في انتزاعها منه، على الرغم من حدّتها، فحدق فيها لحظات مستنكرا، قبل أن يغمغم، في سخط عصبي:

- يا للنساء!!

ولكن سرعان ما انتبه إلى ما هو أكثر إثارة للدهشة!!

فالمنطقة العشوائية التي يقيم فيها، والتي تنتفض لأقل مؤثر خارجي، كانت تبدو هادئة للغاية..

وربما أكثر مما ينبغي..

وفي توتر فتح النافذة شبه المكسورة، التي تُطل على الطريق مباشرة، ودفع رأسه خارجها، يبحث عن مصدر الصرخة..

ولكن كل شيء في الخارج كان هادئا..

وربما أيضا أكثر مما ينبغي..

والحارة الصغيرة كانت شبه خالية، إلا من شابين رثي الثياب، انهمكا في تقسيم ما بدا أنه حصيلة سرقات الليل..

وكان من الواضح أن المخدرات قد تركت أثرها في حركتهما البطيئة، وجفونهما المثقلة..

عاد يغلق النافذة، والتقط تلك الساعة الذهبية، التي انتزعها من يد واحدة من ضحاياه، وألقى نظرة عليها، وعلى عقاربها التي تشير إلى دقائق قليلة تجاوزت الثالثة صباحا، ثم ألقى الساعة على مائدة شبه متهالكة، وهو يغمغم:

- لا بد أنه كابوس.

عاد يرقد إلى جوار امرأته، وهو يستعيد أحداث يومه، بحثا عن سر هذا الكابوس..

لقد غادر المنطقة في السابعة مساء كعادته، وهو يحمل عدة الشغل، كما يُطلق عليها..

مسدس يدوي الصنع، وخرطوشتين مناسبتين له، ومطواة ذات نصل طويل حاد..

وفي العاشرة شاهد تلك السيارة الفاخرة تقترب..

سيارة ذات اسم شهير، يكفي ثمنها إطعام منطقته العشوائية كلها، لأكثر من أسبوع كامل..

وفي أعماقه، تداخلت المشاعر..

جزء من الغضب، من أولئك الأثرياء، الذين ينفقون كل هذا المال لشراء سيارة!!

أيا كانت فخامتها، فهي بالنسبة له مجرد سيارة..

وجزء آخر من النشوة؛ لأنه سيشفي غليله، ويحرق قلوبهم على ما أنفقوه..

كان يعلم أن الأسلوب الذي يتبعه تقليدي، إلا أنه كان يدرك فاعليته..

وبسرعة، استقر على متن دراجته البخارية، ووضع أمامه طبقا من الألياف الصناعية الخفيفة، عليها ثلاث بيضات..

وعندما اقتربت السيارة، التقط نفسا عميقا، وراح يرمي البيضات الثلاث، على زجاجها الأمامي..

وفي ظفر، شاهد البيضات الثلاث تتحطم على الزجاج، وتلوثه إلى حد يعوق الرؤية..

كان يعلم أن سائق السيارة لن يتوقف، ولكنه سينطلق بسرعة أكبر..

ولكن الرؤية لن تسمح له بالاستمرار..

وسيكون من حسن حظه هو أن يحاول السائق تشغيل مسّاحات الزجاج؛ للتخلص من لزوجة البيض..

عندئذ ستنعدم الرؤية تماما..

وسيضطر إلى التوقف..

ولهذا، فما إن زادت السيارة من سرعتها، حتى انطلق هو خلفها بدراجته البخارية..

وما هي إلا خمسة كيلو مترات، حتى حدث ما توقعه بالضبط..

اضطر سائق السيارة إلى التوقف، على جانب الطريق، الذي خلا أو كاد من السيارات، في طقس الشتاء البارد..

وما أن شاهد السائق يغادر السيارة؛ ليمحو آثار البيض، حتى أدرك أنه قد ربح المعركة..

وبسرعة، كان يقف بدراجته البخارية إلى جواره، ويشهر مسدسه في وجهه، صائحا في خشونة قاسية أتقنها:

- اترك السيارة وابتعد..

كان ينتظر امتثالا مذعورا اعتاده، إلا أنه فوجئ بالسائق ينقضّ عليه، محاولا انتزاع مسدسه منه..

وعندئذ انتقل الذعر إليه..

وسمع ذلك الدوي الشديد، ممتزجا بصرخة رعب هائلة..

لوهلة، تداخلت الأمور في رأسه، فلم يدرك ما حدث..

ثم استوعب الأمر كله، في اللحظة التالية..

استوعبه، عندما شاهد السائق يتراجع، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، من فرط الذهول والألم، وبقعة دم كبيرة تغطي صدره..

وفي نفس اللحظة، انتبه إلى تلك المرأة شديدة الذعر، واضحة الثراء، والتي تجلس منكمشة في المقعد الخلفي..

وفي نفس اللحظة، التي سقط فيها السائق جثة هامدة، التقت عيناه المرأة، اللتين حفر فيهما الرعب أقسى ملامحه..

ولم تثب إلى ذهنه عندئذ، سوى فكرة واحدة..

لقد رأته..

وبكل رعبها وذعرها، اندفعت تلك المرأة، تحاول الفرار من السيارة، إلا أنه وثب نحوها، وأسقطها بمعطفها الثمين أرضا، وجثم فوقها، فراحت تصرخ في رعب:

- لا تقتلني.. خذ كل مالي ولا تقتلني..

أراد أن يخبرها بأنه سيأخذ كل مالها، في كل الأحوال..

ولكنه لم يقل شيئا..

فقط سيطرت عليه فكرة أنها رأته يقتل..

ولا بد وأن ترحل..

صرخت المرأة، وصرخت، وصرخت..

ولكن صرخاتها لم تجد صدى، حتى في خلية واحدة من قلبه..

وبلا رحمة، مرر مطواته الحادة على عنقها، ورأى الدماء تتدفق منه في غزارة، وسمع من المرأة حشرجة مخيفة، قبل أن تتسع عيناها عن آخرهما..

لحظتها، ظهرت تلك الأضواء من بعيد..

وأصابه الذعر..

جثة السائق كانت ملقاة في وضوح، وجثة المرأة غارقة في دمائها، وفرصة سرقة السيارة ضاعت هباء، مع اقتراب السيارات السريع..

وفي تلك الليلة، لم يعد بطعام أو شراب إلى الكشك الذي يقيم فيه..

فقط بتلك الساعة الذهبية، التي قرر أن يبيعها للمعلم قدري، في الصباح التالي..

ولكنه علم الآن مصدر كابوسه..

وعلم لماذا بدت له تلك الصرخة الممتزجة بالحشرجة مألوفة..

إنها آخر صرخة أطلقتها المرأة، قبل أن يرديها..

لا بد أن عقله قد اختزنها، وأعاد إطلاقها في كابوسه..

نعم.. هذا ما حدث..

ولكن لماذا حدث؟!

تلك المرأة لم تكن أول ضحاياه..

وهي حتما ليست آخرهم..

فلماذا اختزن عقله صرختها بالذات؟!

لماذا؟!

لم يشغله السؤال أكثر من ثوانٍ معدودة، قبل أن يطرحه عن ذهنه، ويقرر العودة إلى النوم..

ولكن ما أن أعاد رأسه إلى الوسادة البالية، حتى انطلقت تلك الصرخة مجددا..

نفس الصرخة الممتزجة بالحشرجة..

وبنفس الصوت!!

وفي هذه المرة وثب من فراشه مذعورا..

إنه ليس كابوسا حتما!!

إنه لم ينم بعد، حتى يهاجمه ذلك الكابوس ثانية!!

إنها صرخة قوية..

عالية..

واضحة..

مدوية..

ولقد سمعها في صحوه..

وبكل وضوح..

ولكن امرأته لم تسمعها حتما؛ لأنها ظلت مستغرقة في نومها بنفس العمق، وهي التي يمكن أن تستيقظ مذعورة إذا ما أغلق الباب بشيء من القوة، عندما يعود..

والطريق في الخارج ما زال هادئا!!

فتح النافذة مرة أخرى، ورأى الشابين يستعدان للانصراف، بعد أن انتهيا من تقسيم المسروقات، فهتف بهما:

- هل سمعتما هذا؟!

التفتا إليه في دهشة متسائلة، فأضاف في عصبية:

- تلك الصرخة.

بدت عليهما حيرة مخدرة، وغمغم أحدهما:

- أية صرخة؟!

لم يجب تساؤله، وإنما أغلق النافذة في وجهيهما في عصبية، والتفت يحدق في امرأته النائمة، وقد سرت ارتجافة عجيبة في جسده..

ما الذي يعنيه هذا؟!

هل انطلقت تلك الصرخة بالفعل، أم إنه مجرد وهم؟!

وكيف لم يسمعها سواه، على الرغم من قوتها ووضوحها؟!

كيف؟!

جلس على مقعد يكاد ينهار من تحته، وبحث بين الخرق البالية عن سيجارة محشوّة بالمخدرات، تركها هناك من باب الاحتياط، وأشعلها بأصابع مرتجفة، وراح يدخّنها في شراهة عجيبة، وكأنما ينفث توتره مع دخانها..

أو يأمل هذا على الأقل!!

وبكل عصبيته راح يغمغم:

- إنه وهم.. مجرد وهم..

واصل تدخين سيجارته، أملا في أن تساعده على النوم، حتى لم يعد بها ما يمكنه تدخينه، فألقاها أرضا، وسحقها بقدمه في قوة، وهو يغمغم بكل عصبية:

- بالتأكيد وهم.

نهض مرة أخرى إلى فراشه، وهو يتساءل: ما الذي سيحدث، إذا ما وضع رأسه على وسادته مرة أخرى؟!

ماذا؟!

تردد لحظات، ثم حسم أمره، ورقد إلى جوار امرأته، وخفض رأسه إلى الوسادة في بطء، واستقر رأسه فوقها، دون أن يسمع تلك الصرخة، فتنهّد في ارتياح، وحاول أن يبتسم، وهو يسبل جفنيه، و...

وانطلقت الصرخة مرة أخرى..

وفي هذه المرة، لم تكن صرخة ممتزجة بالحشرجة فحسب..

بل كانت تمتزج أيضا بصرخة أخرى..

صرخته هو..

وفي هذه المرة، استيقظت امرأته مذعورة، تهتف به في رعب:

- ماذا حدث؟!

صاح بها، وهو يرتجف، وربما لأول مرة في حياته:

- هل سمعت تلك الصرخة؟!

أجابته مذعورة:

- بالطبع.. هل أصابك كابوس ما؟!

صاح بها في حدة:

- لست أقصد صرختي، بل تلك الصرخة الأخرى.

بدت مرتبكة مذعورة، وهي تسأله:

- أية صرخة أخرى؟!

فوجئت به يحدّق في وجهها في رعب شديد، ثم يثب من فراشهما، وهو يلوّح بذراعيه، صارخا:

- لا.. ابتعدي عني.. ابتعدي عني..

وتضاعف ذعرها ألف مرة..

هذا لأنها لم تدرك أنه، وعندما نظر إلى وجهها، لم يرها هي..

لقد رأى تلك المرأة التي قتلها..

رآها تنظر إليه، وتبتسم في تشفّ، ثم تفتح شفتيها..

وتصرخ..

نفس الصرخة المدوية، الممتزجة بحشرجة الموت..

وفي الصباح المبكر، وصلت الشرطة؛ لتلقي القبض على مجاهد بعد أن استخرجت بصماته، من مديته التي تركها خلفه، فوق جثة تلك المرأة..

ولكن رجال الشرطة، الذين ألقوا القبض عليه، أدركوا على الفور أنه لن يدان بفعلته..

هذا لأن مجاهد صاحب صحيفة السوابق الكبيرة، لم يكن ذلك الرجل الذي يمكن معاقبته على ما ارتكبه، أيا كان..

لقد صار رجلا مجنونا، جحظت عيناه من شدة الرعب، وراحت تنبعث من حلقه صرخة متصلة..

وبلا انقطاع.

☆ ☆ ☆ ☆

همس..

التفت رأفت يلقي السؤال على زميله، الذي يجلس على المكتب المجاور له تماما، فضحك زميله، وهو يلوح بيده، قائلا:

- لم أقل شيئا.. إنني أعمل في صمت كعادتي.

ارتسمت الحيرة على وجه رأفت، وهو يقول:

- خيّل لي أنك قد همست بشيء ما.

هز زميله رأسه نفيا، وهو يعود إلى عمله، مغمغما في ضجر:

- لم أفتح شفتيّ حتى.

عاد رأفت إلى عمله بدوره، وهو يشعر بحيرة كبيرة!!

لقد سمع هذا الهمس في وضوح..

ربما لم يتبين فحواه أبدا، ولكنه سمعه..

كان يعمل أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به، في مقر عمله، عندما سمع من يهمس في أذنه..

في أذنه مباشرة..

وكان الهمس شديد الوضوح، إلى درجة لا يمكن نكرانها..

طرح الأمر عن رأسه، وعاد يواصل عمله في اهتمام، وشعر بزميله ينهض، وهو يقول متثائبا:

- سأخرج لتدخين سيجارة، وسأعود على الفور.

وافقه رأفت بإيماءة من رأسه، وهو يواصل عمله..

ولم تمض دقيقة واحدة بعدها، حتى سمع هذا الهمس مرة أخرى.

سمعه أكثر وضوحا..

وعلى بعد سنتيمترات قليلة من أذنه..

وفي حركة حادة، تلفت حوله، وهو يرتجف..

زميله ترك المكتب، ولم يعد هناك سواه..

فمن يهمس في أذنه؟!

من؟!

نهض يبحث في كل مكان، داخل ذلك المكتب الصغير..

حتى سماعات جهاز الكمبيوتر، فحصها بكل دقة..

السماعات حتى لم تكن موصولة..

لم يكن هناك أي مصدر، يمكن أن يأتي منه الهمس..

كان الأمر صعبا هذه المرة، إلا أنه بذل قصارى جهده؛ ليطرح الأمر عن رأسه، وقرر أن يولي كل اهتمامه وانتباهه لعمله، لعل هذا يبعده عن هلوسة الهمس هذه..

وفي شيء من الحزم، جلس أمام شاشة الكمبيوتر، و...

وارتجف جسده في قوة..

لقد شاهد ذلك الظل يعدو..

عبر شاشة الكمبيوتر..

ظلا بلا تكوين واضح، برز من أحد جانبي الشاشة، واندفع عبرها في حركة أشبه بالعدو، ليختفي عند الجانب الآخر منها..

ووثب رأفت من مقعده، وابتعد عن مكتبه، يحدق في شاشة الكمبيوتر في ذعر..

ما هذا بالضبط؟!

أهو خلل في جهاز الكمبيوتر، أم فيروس رقمي، دسّه أحد في برنامجه؟!

ولكن كيف يمكن حتى أن يدس أحدهم فيروسا في جهازه؟!

هناك جدار ناري قوي، يحمي كل أجهزة الشركة، ومتابعة دقيقة مستمرة، تمنع اختراق برامجها، مهما كانت براعة المخترق..

"ماذا تفعل؟!".

فاجأه صوت زميله، وهو ينطق السؤال في دهشة، فالتفت إليه بحركة حادة، زادت من دهشته، ودفعته إلى أن يستطرد:

- ماذا بك يا رأفت؟! تبدو مضطربا للغاية!!

حاول رأفت أن يتمالك جأشه، وهو يعتدل واقفا، ويقول في توتر، لم يستطع أن يداريه:

- هناك خلل ما في جهاز الكمبيوتر.

اتجه زميله نحوه، وهو يقول في حيرة:

- ولماذا لم تحاول الاتصال بالقسم الفني، بدلا من كل هذا التوتر.

قالها زميله، وهو يحرّك أصابعه، على لوحة أزرار الكمبيوتر، قبل أن يعتدل، قائلا في حيرة أكبر:

- يبدو لي سليما للغاية.

ثم ربت على كتف رأفت، مستطردا في إشفاق:

- على عكسك أنت.

أمسك رأفت رأسه بيده، وهو يغمغم:

- ربما كنت مرهقا بالفعل.

قال زميله في إشفاق:

- اطلب إذنا بالانصراف المبكر إذن.. لم تتبقّ سوى ساعة واحدة أو أقل على موعد الانصراف الرسمي..

أجابه رأفت في عصبية:

- أنت تعلم أن المدير لن يوافق.

قال زميله في حسم:

- سأعمل على إقناعه.. انتظرني قليلا..

انصرف زميله، وبقي وحده مرة أخرى في المكتب، يتلفت حوله في قلق وتوتر، قبل أن يزفر مغمغما:

- إنه إرهاق.. حتما إنه إرهاق.. أحتاج بالفعل إلى بعض الراحة.. سآوي إلى فراشي، فور عودتي إلى المنزل.

تطلّع إلى شاشة الكمبيوتر في خوف مبهم، ثم هز رأسه، مغمغما بكل توتره:

- نعم.. الانصراف هو الحل.. هذا العمل يثير إرهاقي بشدة، و...

وفجأة، وقبل أن يتم عبارته، سمع ذلك الهمس..

كان هذه المرة أكثر وضوحا..

وأكثر تميزا..

ففي هذه المرة، أمكنه تمييز كلمة أو كلمتين منه..

ولكنه وثب من مكانه بكل الرعب..

وعلى الرغم منه انطلقت من حلقه صرخة..

صرخة مكتومة، بدا له وكأنها قد ترددت في كيانه كله..

في كل جزء من جسده..

وكل خلية من خلاياه..

ومع صرخته، فتح زميله باب الحجرة، وتوقف مشدوها مذهولاً..

وبكل توتره واضطرابه، قال له رأفت، وهو يلوح بذراعه في قوة:

- لقد لدغتني نحلة.

دار زميله ببصره في الحجرة في حيرة، مغمغما:

- نحلة؟! هنا؟!

غمغم رأفت بكل انفعاله:

- ربما..

لم يزد حرفا واحدا، فاتجه زميله نحوه، وربت على كتفه متعاطفا، وغمغم محاولا تهدئته:

- نعم.. ربما..

ربت عليه مرة أخرى، وهو يحاول أن يبتسم، قائلا:

- أهنئك.. المدير لم يوافق على انصرافك الآن فحسب، ولكنني أقنعته أيضا بأن يمنحك إجازة ليوم الغد.

ثم مال نحوه، مضيفا:

- غدا الخميس، وهذا يعني أنك ستحصل على راحة لثلاثة أيام.

غمغم رأفت:

- نعم.. هذا أفضل.

لملم أشياءه، وحمل حقيبته الشخصية، وهو يقول:

- أعتقد أن هذا ما أحتاج إليه بالفعل.

ربت زميله على كتفه مرة أخرى، وابتسم ابتسامة مشفقة، وهو يقول:

- حاول أن تنام كثيرا، وتستنشق الكثير من الهواء النقي.. هذا المكتب المغلق يصيبني أنا أيضا بالاختناق.

وافقه رأفت بإيماءة متوترة، وغادر المكتب، وهو يلتقط بعض الهواء خارجه..

ولكن الهواء خارج المكتب، لم يكن يختلف عن الهواء داخل المكتب..

نفس ذلك الشعور المؤلم بالاختناق..

سار بخطوات سريعة، محاولا مغادرة مبنى الشركة كله، وعقله، على الرغم منه، يستعيد تلك الكلمات القليلة، التي ميّزها، في ذلك الهمس الأخير..

"الخامسة ودقيقتان...".

انتفض عندما سمع هذا الهمس أكثر وضوحا هذه المرة..

وكانت الكلمات مميزة للغاية..

انتفض، ولكنه لم يتلفت حوله، حفاظا على هيبته، وسمعته وسط زملاء العمل، وعمال وموظفي الشركة..

وبكل توتره، حاول عقله أن يستعيد كل معارف حياته..

مشكلة نفسية..

هذا ما جال بخاطره..

لقد قرأ يوما أن المصابين ببعض الأمراض النفسية، يسمعون همسا أحيانا..

وكذلك بعض المصابين بمشكلات في المخ..

هالته الفكرتان، وقرر أن يعرض نفسه على طبيب متخصص، فور استيقاظه من نومه..

فقط ليطمئن على نفسه..

وعلى عقله..

اتجه في خطوات سريعة نحو سيارته، وأدار محركها، دون أن يتوقف عن التساؤل..

من أين يأتي هذا الهمس؟!

وما الذي يعنيه؟!

ولماذا الخامسة ودقيقتان بالتحديد؟!

لماذا؟!

انطلق بسيارته، محاولا طرح الأمر كله عن رأسه، إلا أن عقله أصر على أن يستمر في التفكير..

ماذا بالفعل، لو أنه مرض نفسي..

هلاوس سمعية بصرية..

أو انفصام في الشخصية..

ولكن لماذا؟!

ماذا استجد، ليصاب بمرض نفسي؟!

حياته تسير على وتيرة واحدة ثابتة..

يستيقظ في الصباح، ويتناول إفطاره، ويذهب إلى عمله، ويقضي فيه يومه، ثم يعود ليشاهد التلفاز، ويستحم، ثم يأوي إلى فراشه..

لم يتزوج..

ولم يرتبط بأحد..

وليست له حتى هواية تشغل وقت فراغه..

أمن الممكن أن يكون هذا هو السبب؟!

الفراغ.. والوحدة؟!

ربما كان هذا هو السبب بالفعل..

إنه يحتاج إلى الصحبة..

إلى رفيقة حياة..

إلى هواية ما، تشغل وقت فراغه..

ولكن كيف؟!

شعر برغبة عارمة في العودة إلى منزله، فزاد من سرعة سيارته، وأشعل مشغل الموسيقى؛ لتغيير الجو المحيط به..

وكمحاولة للخروج من توتره، راح يغني بصوت مرتفع، مع تلك الأغنية القديمة، التي تنبعث من مشغل الموسيقى، و...

وفجأة، وعلى الرغم من كل الضجيج، الذي يصنعه امتزاج صوته المرتفع، بمشغل الموسيقى، سمع ذلك الهمس..

همس أشبه بالفحيح، يهمس، ليس على بعد سنتيمترات من أذنه، بل داخل أذنه.. داخل كيانه كله...

وعبر زجاج السيارة الأمامي، شاهد ذلك الظل غير المميز، يعدو من أحد جانبي الزجاج، إلى الجانب الآخر..

وانتفض جسده في قوة وعنف..

وصرخ..

وفي نفس اللحظة، ظهرت سيارة النقل الثقيلة، التي تندفع نحوه في سرعة..

واختلت عجلة القيادة في يده، مع صرخته ورعبه..

وكان الاصطدام بالغ العنف..

وبينما هو ملقى، يلفظ أنفاسه الأخيرة، وسط حطام سيارته، لمح تلك الساعة الرقمية في تابلوه السيارة، أو ما تبقى منه..

وكانت تشير إلى الخامسة ودقيقتين..

تماما.

☆ ☆ ☆ ☆

الذئاب..

"إنها الجريمة الكاملة"

هذا ما حدّث عزيز به نفسه، وهو يُخرج جثة زوجته من حقيبة تلك السيارة القديمة المسجّلة باسم زوج أمه الراحل، والتي أبلغ عن سرقتها منذ ثلاثة أشهر، وأخفاها في ذلك المنزل القديم وسط الصعيد..

لا أحد يمكنه ربطه بالمنزل أو السيارة..

وهذا جزء من خطة جريمته الكاملة..

ابتسم في زهو وحشي، وهو يجرّ جثة زوجته، عبر تلك المنطقة النائية، شبه الجبلية، في قلب الصعيد..

لقد أبلغ عن غياب زوجته بالأمس، وبكى كثيرا أمام ضابط المباحث، وهو يناشده العثور عليها، واثقا من أن الضابط المنهك بعشرات البلاغات، لن يبدأ في البحث عنها فعليا، قبل يومين على الأقل..

سيفترض كالمعتاد أن الزوجة قد فرّت من زوجها، لسبب أو آخر..

وحتى عندما يبدأ الاهتمام بالأمر، عندما يطول غياب الزوجة، ستكشف التحريات علاقتها بجارهم الشاب، والتي سيبدي هو دهشته واستنكاره لها، وسيصر على أن زوجته من أشرف نساء الأرض، ولا يمكنها أن تخونه..

ولا بأس عندها من وصلة بكاء ونحيب وانهيار..

وهو يجيد هذه اللعبة..

يجيدها جيدا..

والأهم أنه يمتلك قدرة مدهشة على ضبط النفس..

حتى عندما كشف أن زوجته تخونه منذ زمن، مع ذلك الجار المتحذلق، استطاع الحفاظ على هدوء أعصابه..

وبدأ في رسم خطته..

وبمنتهى الصبر..

والإحكام..

اختار السيارة، والمنزل الذي سيخفيها فيه..

والأهم أنه اختار البقعة التي سيترك فيها الجثة..

لن يقوم بدفنها، كما يفعل معظم القتلة..

إنه أبرع وأذكى من هذا بكثير..

لقد دسّ لها السم، وسقاها إياه بيديه، وهي تظنه شرابا طهورا أعده احتفالا بعيد زواجهما..

وكم شعر بالاستمتاع، وهو يشاهدها تتألم وتتلوى أمام عينيه، وتناشده أن يستدعي طبيبا لإسعافها..

في تلك اللحظة فقط واجهها بما عرف..

وبما رأى..

حتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، صرخت بأنه مخطئ..

حاولت أن تقنعه بأنها لم تكن تصعد إلى ذلك الشاب، وإنما إلى المريضة العاجزة، التي تحتاج إليها كممرضة محترفة..

أخبرته بأنها أخفت الأمر عنه؛ لأنها تعلم كم يغار..

خشيت أن يسيء الفهم..

ولكنه لم يصدّق حرفا واحدا مما قالته..

ولم يمد لها يد المساعدة..

ولا حتى أنملة واحدة من أنامله..

تركها أمامه تموت، وتلفظ أنفاسها الأخيرة رويدا رويدا..

وبعدها، وفي قلب الليل، والأمطار تنهمر في الخارج، وتدفع كل الناس إلى البقاء في بيوتها، نقلها إلى حقيبة السيارة، التي قادها طوال الليل، ليخفيها في ذلك المنزل القديم، ثم عاد ليبلغ الشرطة بغيابها..

يا لها من جريمة كاملة!

كتاب القصص البوليسية، ورجال الشرطة كلهم يؤكّدون دوما أنه ما من جريمة كاملة.. وأن القاتل يلقى عقابه دوما..

ومهما طال الزمن..

ولكن كل هذا بالنسبة إليه مجرد هراء..

خيال جامح، لا يضع اعتبارا للذكاء البشري..

حتى في ارتكاب الجرائم..

والأمور في الحياة تختلف، عنها في خيال الأدباء، وآمال رجال الشرطة..

فالقاتل يقع دوما في قبضة العدالة؛ لأنه غبي..

أو لأنه لم يخطط لجريمته جيدا..

أو بدقة..

أما معه، فالأمر يختلف تماما..

لقد ظل ثلاثة شهور كاملة، يخطط لجريمته..

بكل الصبر..

وكل الدقة..

اختار الوسيلة، والمكان، والزمان..

حتى ليلة ارتكاب الجريمة، اختارها مع تنبؤات الطقس..

كان يعلم أنها ستكون ليلة ممطرة، يختفي فيها الكل في بيوتهم، وخلف أبوابهم..

قام بمعاينة كل شيء..

بل وبأداء بروفة كاملة للجريمة..

سجادة قديمة، حملها في ليلة مشابهة، ووضعها في السيارة القديمة، وسط المنطقة التي يعيش فيها، فلا أحد رأى، ولا أحد اهتم..

وقاد السيارة إلى ذلك المنزل القديم..

ولم يستوقفه أحد..

حتى نوع السم اختاره بعناية عبر شبكة الانترنت، وحرص على أن يكون سما بطيء المفعول، حتى يراها تتعذب، قبل أن تلقى جزاءها..

كل شيء خططه بمنتهى الدقة..

منتهى منتهى الدقة..

لا مجال لخطأ واحد..

على الإطلاق..

وتلك المنطقة، التي يجر فيها جثتها اختارها أيضا في عناية..

منطقة مقفرة، مهجورة، يرتفع فيها عواء الذئاب طوال الوقت..

ولهذا لن يقوم بدفن الجثة..

سيتركها لهم..

للذئاب..

جرحان أو ثلاثة، في ساقيها وعنقها، وتجذب رائحة الدماء الذئاب، فتهرع إلى المكان، وتنهش الجثة نهشا..

وهكذا يختفي دليل الجريمة الوحيد..

الجثة..

تختفي في بطون ذئاب جائعة، ويضيع معها وسط الجبال..

إنها خطته العبقرية..

وجريمته الكاملة..

الجريمة التي تصوّر الكل أنها مستحيلة!

واصل جرّ الجثة، حتى وصل إلى منطقة لا يمكن أن يراه أو يسمعه فيها أحد..

وفي هدوء، تركها مسجّاة على الأرض، ونهض يتطلع إليها في تشفّ..

لقد انقلبت سحنتها وبدت مخيفة ورهيبة، بعد مرور ساعات طويلة على مصرعها..

وهي تستحق هذا..

وبكل تأكيد..

قلب شفتيه في اشمئزاز، وأخرج سكينا حادا من طيات ملابسه، ثم أخذ يمزق قطعا من جسدها..

ولكن الدماء لم تنهمر كما تصور..

وهنا انتبه إلى فجوة في خطته الكاملة..

الدماء لم تنزف من العروق؛ لأنه لم يعد هناك قلب ينبض، ليدفعه خارجها..

أو لأنها قد تجلّطت بالفعل داخل العروق..

شعر بالغضب من نفسه؛ لأنه لم يفكر في هذا..

ولكن حتى ذلك الغضب، لم ينتقص من شعوره بخطة جريمته الكاملة..

لو أن دماءها لا تنزف، وقلبها لا ينبض، فدماؤه هو مستعدة..

جرح باطن كفه جرحا صغيرا، أخفاه بين ثنايا راحة كفه، وأسقط نقطتين من دمه، على الرمال المجاورة للجثة..

إنه ليس من الغباء، ليسقطها فوق الجثة مباشرة..

صحيح أن الذئاب ستلتهمها كلها، ولكن لماذا يترك أي احتمال للظروف؟!

الأصح أن يحافظ على دقته..

وحتى اللحظة الأخيرة..

استدار يلقي نظرة على السيارة، التي تبعد عنه مائة متر فحسب، والتقط نفسا عميقا من هواء الجبل البارد، قبل أن يرمق الجثة بنظرة أخيرة، كلها ازدراء واحتقار، ثم يوليها ظهره، ويتجه للسيارة..

ثم توقف فجأة، وهو يطرح على نفسه سؤالا أقلقه..

وماذا لو عثر أحدهم على الجثة، ولو من قبيل المصادفة، وكانت قطرتا دمه فوق الرمال، على بعد خطوة واحدة منها؟!

ألن يثبت هذا أنه كان هنا؟!

ألن يقودهم إليه؟!

عاد أدراجه في سرعة، وضمّ كفيه، يرفع حفنة الرمال، التي حوت قطرتي دمه، ثم ابتعد عن الجثة، بضعة أمتار، ونثرها في الهواء..

وبعدها شعر بالارتياح..

الآن صارت الجريمة كاملة، لا مجال للخطأ فيها..

ولا حتى بالمصادفة..

أطلق تنهيدة ارتياح واثقة، واستدار يعود إلى السيارة، و..

وسمع عواء الذئاب..

وارتجف جسده ارتجافة خفيفة، تمتزج بشيء من الارتياح؛ لأن هذا يعني أنهم قادمون..

وأن خطته قد بلغت مرحلتها الأخيرة..

أسرع الخطى، متجها نحو السيارة، قبل أن تصل الذئاب..

وفي طريق عودته، مرّ إلى جوار جثة زوجته، و..

وفجأة، علق شيء ما في طرف سرواله..

ومع السرعة التي كان يندفع بها، اختلّ توازنه..

وسقط..

لم يكن قد ترك السكين من يده بعد، عندما سقط على وجهه على الرمال، فشعر بألم شديد في فخذه، ليدرك تلك الحقيقة السخيفة..

نصل السكين انغرس في فخذه مع سقوطه..

استدار؛ ليرى ما الذي علق بطرف سرواله، وانتفض جسده في عنف..

لقد كانت يد جثة زوجته..

الأصابع أصابها ذلك التخشّب الرمّي، فعلقت في تلك الثنية الصغيرة، في نهاية سرواله، وأعاقت حركته على نحو مباغت..

ولهذا سقط..

اعتدل في حنق؛ ليخلّص طرف سرواله من بين أصابعها..

ثم ارتجف مرة أخرى..

وفي عنف أكبر..

كان عواء الذئاب يعلو ويقترب، عندما خيّل إليه أن وجه الجثة يحمل ابتسامة..

وبسرعة استنكر ما يراه..

إنها تغيرات رمّية في الجثة حتما..

الموتى لا يبتسمون..

ولا يشعرون..

والأهم، أنهم لا ينتقمون..

تجاهل هذا، وحاول تخليص طرف سرواله من الأصابع المتخشبة، قبل وصول الذئاب، إلا أن تلك الأصابع المتيبسة بدت وكأنها متشبثة بطرف السروال في إصرار..

وعواء الذئاب يقترب..

ويقترب..

ويقترب..

وفي عصبية، قرر أن يقطع تلك الأصابع، المتشبثة بطرف سرواله، فمال أكثر ليصل إليها بسكينه، و...

وفجأة، تجمّدت كل مشاعره..

فهناك، على قيد أمتار قليلة من الجثة، كانت هناك عيون صغيرة تحدق فيه في وحشية، وأنياب حادة تنفرج عن زمجرات متصلة..

ثم وبسرعة، انضمّت إليها عيون وأنياب أخرى..

وأخرى..

وأخرى..

والدماء تنزف من إصابة فخذه في شدة..

ومع الذئاب التي أحاطت به من كل جانب، راح عزيز يصرخ..

ويصرخ..

ولكنه اختار المكان بدقة شديدة في الواقع..

فهنا لا يمكن لأحد أن يراه..

أو يسمعه..

وهنا، وقبل أن تنقضّ عليه الذئاب من كل صوب بلحظة واحدة، أدرك عزيز أنه ما من جريمة كاملة..

حتى لو عجزت عنها عدالة القانون..

فهناك عدالة أخرى، لا يفلت منها مجرم بجرمه أبدا..

تلك العدالة، التي أرسلت إليه عقابها عبرهم..

عبر الذئاب.

☆ ☆ ☆ ☆

غبار..

انعقد حاجبا (درويش)، بمنتهى القسوة والشراسة، وهو يجلس واضعا إحدى ساقيه فوق الأرض، متطلعا إلى ذلك الشاب، الذي لم يتجاوز العشرين من عمره بعد، والذي أمسك به اثنان من رجاله، وأجبراه بقسوة على الركوع أمامه، وهو يهتف في ذعر باك:

- أقسم أنني سأدفع ثمن ما أخذته.. غذا سأحضر لك المبلغ المطلوب.. إنها أزمة عابرة فحسب..

زمجر (درويش) في شراسة، جعلته أشبه بذئب برى متوحش، وهو يقول:

- لقد أمهلتك أسبوعين كاملين، لتدفع ثمن البضاعة، واليوم تنتهي المهلة، وليس من عادتي مد المهلة، مهما كانت الأسباب.

بكى الشاب في انهيار، وهو يقول:

- ولكنني أقسم أن أدفع المبلغ غدا.. أمهلني فقط حتى ظهر الغد، وسأسدد الثمن كله، حتى ولو اضطررت لسرقة مصاغ والدتي، و..

قاطعه (درويش) بزمجرة أكثر شراسة:

- لا يوجد غد.. بالنسبة لك على الأقل.

انهار الشاب أكثر، وهو يقول ودموعه تغرق وجهه:

- الرحمة.. أرجوك.

صرخ فيه (درويش):

- ليست مسألة رحمة.

ثم تراجع في مقعده، وأضاف في شيء من الزهو الوحشي:

- إنها مسألة مبدأ.

كاد الشاب المسكين يفقد الوعي، وهو يقول:

- ولكنني وحيد والدي. ولن يبخلا بأي شيء، في مقابل حياتي.

لوح (درويش) بذراعه، في حركة مسرحية، وهو يقول:

- هراء.. إنهما حتى لم يحسنا تربيتك.

لم ينبس الشاب ببنت شفة، وهو يبكي وينتحب بصوت مرتفع، فتابع (درويش)، وقد اكتست لهجته بلمحة من الشماتة:

- أنت شاب مرفه، من أسرة ذائعة الصيت، ووالداك من طبقة، تتصور نفسها فوق كل الطبقات، وتنظر إلى أمثالنا من عل، نظرة احتقار وازدراء، وينفقان عليك بسخاء؛ لتصل إلى أعلى مستويات التعليم، الذي لم نحظ نحن بأدناه.

ارتفع بكاء ونحيب الشاب أكثر، مما زاده انتعاشا وزهوا وشماتة، وهو يتابع:

- والأثرياء أمثالكم يتصورون أن المال هو كل شيء.. فقط لأنهم يمتلكونه.. وينسون أن التربية هي الأساس.

بدت هذه الموعظة عجيبة، تتناقض وبشدة مع هيئة (درويش)، وعمله في تجارة المخدرات، إلا أن الشاب المنهار لم يعلق على هذا، واكتفى ببكاء عنيف، جعل (درويش) يزداد شماتة، وهو يقول في ازدراء متعمد.

- انظر إلى نفسك.. شاب يتلقى التعليم في أغلى جامعات (مصر)، وعلى الرغم من هذا، لم يمكنه مقاومة ميله الطفولي لتجربة المخدرات.

تمتم الشاب في صعوبة، من وسط بكائه:

- أقسم ألا أعود إليها مرة أخرى.

أطلق (درويش) ضحكة عالية ساخرة وحشية، قبل أن يقول:

- قسم ستبر به حتما؛ لأنك لن تكون بيننا، لتعود إليها مرة أخرى.

ثم أخذت لهجته تكتسي بالشراسة، وهو يضيف:

- ولا حتى إلى والديك.

تصور أحد الوحشين، اللذين يمسكان بالشاب، أن هذا بمثابة إصدار الحكم، فقال في غلظة، بدت وكأنها جزء من شخصيته:

- هل ننهى الأمر؟!

ارتجف الشاب في رعب، في حين التمعت عينا (درويش)، وهو يشير بسبابته، قائلًا:

- أرأيت أيها المدلل؟!.. بإشارة واحدة منى، أهبك الحياة أو الموت.

انتفض الشاب في عصبية مفاجئة، وصاح، على الرغم من دموعه وانهياره:

.. ومن أنته حتى تهب الحياة أو الموت؟ ...

انتفض (درويش) بدوره، وحدق في الشاب ذاهلا، غير مصدق أنه قد نطق تلك الكلمات..

ولكن الشاب تابع في غضب عجيب، وكأنَّما أدرك أنه هالك لا محالة، فلم يعد يجد داعيا للبكاء أو التوسل:

- الله سبحانه وتعالى وحده يحيي ويميت.. أما أنت، وكل ضباعك الشرسة، فلستم سوى مخلوقات ضعيفة، لو سلط عز وجل عليكم كلبا من كلابه، لما بقيت فيكم خلية واحدة حية، أو عرق واحد ينبض.

تضاعف ذهول (درويش) وغضبه واستنكاره، واحتقن وجهه في شدة؛ من فرط شعوره بالمهانة، في حين غمغم أحد الوحشين، في ذهول مماثل:

- لقد جُنَّ.

صرخ فيه الشاب:

- بل قل: إن مواجهة الموت قد أعادت إلى عقلي وصوابي..

إنني أتساءل: كيف سقطت في هذا المستنقع؟!.. وكيف أسأت إلى نفسي وعائلتي وربي سبحانه وتعالى، بالتورط مع حقراء مثلكم.

هم أحد الوحشين بضربه على رأسه، إلا أن (درويش) استوقفه بإشارة صارمة من يده، نهض بعدها من مقعده، الذي يتخذه عرشا لمملكة المخدرات التي يتزعمها، واتجه نحو الشاب، بوجهه الذي لم يفقد احتقانه بعد، ومال نحوه، قائلا في وحشية غاضبة:

- كلب من كلابه؟!.. هل تصورت أن كلبا يمكن أن يرجف شعرة واحدة في رأس (درويش)، ملك الكيف في (مصر) كلها.

أدهشه أن الشاب قد بدا وكأنه قد اكتسب شجاعة مفاجئة، وهو يقول في تحد، على الرغم من سوء موقفه:

- وهل تصورت أنت أن كلاب الله سبحانه وتعالى، تشبه كلابنا نحن؟!..

احتقن وجه (درويش) أكثر، وأيقن أن الشاب قد فقد عقله بالفعل، وإلا لما جفت دموعه، واكتسب هذه الشجاعة المفاجئة!!

إلا أن هذا لم يصنع عنده فارقا..

لقد أهانه..

وأمام رجليه..

وهو ليس بالرجل الذي يغفر هذا..

أبدا..

وبكل غضبه ووحشيته، ووجهه الذي ازداد احتقانا، اعتدل (درويش)، وضغط أسنانه في قوة، حتى لا تخرج كلماته غاضبة عصبية..

وبعد لحظات من الصمت، قال في بطء وحشي:

- سأريك أنني أهب الحياة أو الموت بإشارة من سبابتي.

قال الشاب في تحد عجيب:

- هراء.

كظم (درويش) غيظه أكثر، وقال:

- سترى.

ثم رفع عينين ملتهبتين إلى رجليه، مضيفا:

- لا أريده أن يموت ميتة عادية.

ورمق الشاب بنظرة متحدية، مضيفا:

- أريده أن يذوق أبشع أنواع العذاب وأقساها وأقصاها، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

كان يتصور أن كلماته ستثير الرجفة في أوصال الشاب، إلا أنه ارتطم بنفس النظرات المتحدية، فأكمل، غير قادر على كتمان عصبيته هذه المرة:

- وأريد تشويهه بشدة، وحرق أطرافه في بطء، حتى تصاب أمه بحالة من الهلع، لا تفارقها طيلة حياتها، عندما نلقى جثته أمام منزله.

مرة أخرى، واجهه الشاب بتلك النظرة المتحدية، والتي أفقدته أعصابه هذه المرة، فصرخ بكل ثورته:

- الآن.. خذوه وافعلوا به هذا.. الآن.

جذب الوحشان الشاب في قوة، وكل شر ووحشية الدنيا يطلان من عيونهما، و..

وفجأة، ظهر ذلك الغبار..

غبار كثيف، اندفع داخل تلك الحجرة، في قبو فيلا (درويش)، التي اختار لها تلك البقعة النائية، البعيدة عن العمران...

وكرد فعل طبيعي، التفت الكل إلى باب القبو، حيث ظهر الغبار..

ومع التفاتتهم، ارتفعت تلك الزمجرة المخيفة.

زمجرة قوية..

عالية..

رهيبة..

زمجرة زلزلت كيانهم، وارتجفت لها أوصالهم، وانخلعت معها قلوبهم..

ثم عبر ذلك الجسم الضخم سحابة الغبار..

وتجمدت الدماء في عروقهم جميعا..

حتى ذلك الشاب..

فذلك الجسم، الذي عبر سحابة الغبار، ورمقهم بعينيه اللامعتين المخيفتين، كان آخر شيء يتخيلون رؤيته، في قبو كهذا..

كان أسدًا..

أسد، قوى، رهيب، مخيف، في ضعف حجم الأسود العادية..

على الأقل..

ولثوان، أدار ذلك الأسد الهائل عينيه في وجوههم..

ثم توقف بصره عند الوحشين، اللذين يمسكان الشاب..

كان وكأنه قد انتقى فريسته الأولى، عندما توقف ببصره عندهما لحظات، حاول أحدهما خلالها أن يسحب مسدسه في حذر..

ولكن الأسد الهائل انقضَّ فجأة..

وقبل حتى أن يجد أحدهما وسيلة أو مكان للفرار، كانت مخالب الأسد تمزق عنق أحدهما، وأنيابه تنغرز في عنق الأخر..

وبكل رعبه، تراجع الشاب عدوا إلى ركن القبو، وانكمش هناك يرتجف في شدة..

وأمام عينيه، شاهد الوحشين البشريين يسقطان أرضا، والدماء تنزف من عنقيهما في غزارة مخيفة، وجسداهما يتلويان في ألم رهيب، وهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة..

ثم رأى الأسد يلتفت إلى (درويش)، الذي تجمد على عرشه الخشبي، واتسعت عيناه عن آخرهما، وارتسمت على وجهه أبشع آيات الرعب..

وفي بطء، اتجه الأسد نحوه، دون أن يرفع عينيه عن وجهه..

وعندما خمدت حركة الوحشين البشريين تماما، وتسمرت نظراتيهما، مع الرعب الذي لم يفارق ملامحهما، كان الأسد يقف أمام (درويش) مباشرة..

وكطفل مذعور مبلول، في طقس عاصف شديد البرودة، راح جسد (درويش) يرتجف، وراح يتمتم بكلمات وهمهمات، لم يتبينها الشاب المنكمش المذعور في البداية..

ثم، وفي حركة واحدة، انقض عليه الأسد..

ومع ثقل حجمه الهائل، سقط (درويش) مع مقعده أرضا..

وجثم الأسد الرهيب، بكل ثقله على صدره..

في تلك اللحظة، انهارت ثقة (درويش)، وانهارت معه غطرسته وزهوه..

لقد تحول إلى فأر مذعور، يصرخ بلا انقطاع، بنفس الكلمات، التي لم يتبينها الشاب في البداية:

- عرفت كيف يبدون.. عرفت كيف يبدون.

ومع آخر كلماته، مال الأسد برأسه نحوه في بطء، وغرس أنيابه في عنقه، ثم توقف على هذا الوضع، وكأنما يريد أن يذيقه بعض العذاب أولا..

وعندما جحظت عينا (درويش) عن آخرهما، من فرط الألم والرعب، أكمل الأسد عمله، وقضم قضمة كبيرة من عنقه..

ومع الدماء التي اندفعت كالشلال، رفع الأسد رأسه، ثم التفت إلى الشاب المسكين، الذي جحظت عيناه بدوره، والتصق بالجدار بشدة، في انتظار مصيره..

وفي هدوء، اتجه الأسد نحوه، وتطلع إلى عينيه مباشرة..

الطبيعي، في مثل هذا الموقف، كان أن ينهار الشاب تماما، مع قدر هائل من الرعب، يكفي مدينة كاملة..

ولكن العجيب أنه لم يشعر بهذا!!..

شيء ما، في عيني ذلك الأسد الهائل، الذي يفوقه حجما بأربع مرات على الأقل، جعله يشعر بشعور عجيب للغاية..

بالارتياح..

ومن خلف باب القبو المفتوح، والذي لم ينقشع عنه الغبار بعد سمع الشاب صوت رجل يهتف:

- هنا.

وفي هدوء، التفت الأسد إلى مصدر الصوت، ثم اتجه نحو الباب، تاركا الشاب خلفه، وقد شمله هدوء نفسي عجيب وعميق..

" ولكن كيف فعلها؟!..

هتف مسئول حديقة الحيوان بالعبارة المتسائلة في دهشة بالغة، وهو يحدق في الشاب، الذي أجابه في هدوء أدهش الجميع:

- لقد رويت لكم كل ما حدث.

هز مسئول حديقة الحيوان رأسه في قوة، وهو يقول:

- ليس هذا ما أسألك عنه.. إننا نتساءل: كيف فر من قفص محكم، ونحن في طريقنا لنقله إلى حديقة الحيوان؟!.. ولماذا في هذه المنطقة بالذات؟!... ثم وهو ما يحيرنا أكثر، لماذا قتل الرجال الثلاثة، ثم لم يمسَّك بخدش واحد؟!..

تنهد الشاب في ارتياح، وأغلق عينيه لحظة، ثم عاد يفتحهما، وهو يجيب في خفوت:

- سَل من أرسله..

ولم يفهم الرجل الجواب..

ولم يستوعب أيضا سر ابتسامة الشاب، وهو ينطق إجابته..

لم يستوعبها..

أبدا.

☆ ☆ ☆ ☆

إبريل..

لماذا طلب (فوزي) مقابلتي اليوم؟١..

طرحت السؤال على نفسي، وأنا أنطلق بسيارتي الصغيرة، متجها إلى تلك القرية الساحلية، التي لست أدرى لماذا اختارها (فوزي) مكانًا للقاء في منتصف الشتاء..

ولا أدرى حتى لماذا هذا الأسلوب، الذي لم يتبعه من قبل قط..

لقد طلب اللقاء، عبر رسالة نصية، استقبلها هاتفي المحمول في منتصف ليلة أمس، وهو يؤكد فيها على أهمية اللقاء، وفي هذا المكان بالذات!!..

ولقد حاولت عبنا الاتصال به مرات ومرات، لأكثر من ساعة كاملة؛ لأخبره بأن الوقت متأخر للغاية، وهو يصر على أن يتم اللقاء فجر اليوم؛ لأهميته وخطورته..

لم أكن أسمع حتى رنينا، كلما حاولت الاتصال به..

فقط صمت..

مجرد صمت تام..

ولأنني لست من رواد تلك القرى السياحية الساحلية، فقد افترضت أن موقعها غير مغطى بشبكات اتصال، على الرغم من أن حتى هذا، لا يفسر الصمت الذي يستقبل كل محاولاتي للاتصال..

ففي كل الأحيان، إما أن تتلقى رسالة آلية، تخبرك أن الهاتف غير متاح، أو أن الهاتف مغلق..

ولكن كل ما أتلقاه هو صمت عجيب، بلا أي تفسير.

ولما كانت الرسالة تحمل دلالات خطورة وأهمية اللقاء، ولأن (فوزي) هو ناشر سلسلة الرعب، التي أقوم بكتابتها منذ سنوات، فقد قمت أرتدى ملابسي، بعد ساعة ونصف من بداية اليوم الجديد، واستقللت سيارتي الصغيرة، وانطلقت بها، على الرغم من كراهيتي الشديدة للقيادة الليلية..

وطوال الطريق، رحت أدندن بكل ما أعرفه من أغنيات؛ في محاولة لمنع عقلي من الاستسلام لتلك الرغبة الملحة في النوم، وأنا أقطع الطريق الصحراوي، ثم أدور عند منحني معروف، لأنطلق في طريق (العلمين) الجديد، والذي يدخر مساحة كبيرة، وزمنا أكبر من الرحلة الشاقة..

ولكن حتى تلك الدندنة، لم تفلح في إقناع عقلي بالاستيقاظ التام، فأدرت مذياع السيارة، ورفعت صوته إلى درجة عالية؛ لعل هذا يقاوم استسلام عقلي..

وطريق (العلمين) طويل ومظلم وممل، ويساعد أي عقل على التراخي والاستسلام، مما جعلني أهتف في غيظ:

أكان من الضروري أن تنقل إلى جنونك هذا يا فوزي؟!..

أغمضت عيني في قوة، دون أن أخفض من سرعتي، ثم عدت أفتحهما، و..

فوجئت بقافلة من الجمال، تعبر الطريق، على مسافة أمتار قليلة، دون أن تبالي بأضواء السيارة، التي غمرتها، وجعلتها تبدو وسط الظلام، كجبال صغيرة متحركة..

وبكل قوتي، ضغطت فرامل السيارة، وانحرفت بها؛ محاولا تفادي الاصطدام، فمالت السيارة في عنف خارج الطريق، وسقطت وسط الرمال التي تحيط به من الجانبين، وشعرت بجسدي يرتطم بكل جزء منها، على الرغم من حرصي على ارتداء حزام المقعد، من قبل حتى أن يصدر قانون يحتم هذا..

ويبدو أنني قد فقدت الوعي للحظة أو لحظتين، إذ انتبهت فجأة إلى أنني داخل السيارة المقلوبة فوق الرمال، فرحت أعمل جاهدا على حل حزام المقعد، ثم زحفت خارج السيارة، ووقفت أتطلع إليها في يأس وألم..

"اللعنة يا (فوزي).. ماذا سأفعل الآن؟!.."..

هتفت بالعبارة والسؤال في أعماقي، وزفرت في حنق، وألقيت نظرة على ساعة يدي، التي توقفت عقاربها عند الثالثة وتسع دقائق بالضبط..

ولم يكن هناك أثر لقافلة الجمال...

ولا لأية سيارات أخرى على الطريق..

وكان هذا يعني أنني سأظل هنا وحيدا، أو أقطع ما تبقى من الطريق سيرا على الأقدام..

بحثت في جيب سترتي عن هاتفي المحمول، ولكنه لم يكن يتلقى إشارات من أي نوع، فعدت أدسه في جيبي، وأتلفت حولي..

ثم لمحت ذلك الضوء..

رباه!.. هناك مكان على بعد ثلاثمائة متر فحسب، تنبعث منه الأضواء..

كيف لم أنتبه إليه من قبل؟ ...

كيف؟!..

أسرعت الخطى نحو ذلك المكان، الذي صار يمثل بالنسبة لي، كل الأمل، في الخروج من هذا الموقف العسير..

وعلى الرغم من أنه كان يبدو على بعد ثلاثمائة متر، إلا أنني وصلت إليه في سرعة، أدهشتني شخصيا، ولمحت اللافتة المضيئة فوقه..

"المحطة.."..

اسم عجيب، لمكان في هذا الموقع!!..

لعلها استراحة، اختار لها أصحابها هذا المكان؛ لينفرد بخدمة رواد الطريق، الذي لم تمتد إليه يد العمران بعد..

ومن حسن الحظ، أنه لم يغلقه في فصل الشتاء..

التقطت نفسا عميقا، ودفعت باب المكان، ودلفت إلى الداخل..

وكم أدهشني أن المكان لم يكن خاليا كما توقعت..

لقد كان مزدحما بالرواد، على الرغم من أنني لم ألمح أية سيارات خارجه..

وكان هناك رجل طويل القامة، صارم الملامح، يقف خلف ما بدا أشبه ببار من الخشب، ويتبادل الأحاديث مع بعض الرواد، مما أوحى إلى بأنه المسئول عن المكان، فاتجهت إليه مباشرة، أسأله:

- معذرة.. أيوجد هاتف هنا، يمكنني استخدامه؛ لطلب إسعاف الطريق؟

ألقى الرجل على نظرة لامبالية، قبل أن يسألني في هدوء:

- حادث سيارة آخر؟!

أومأت برأسي إيجابا:

- لقد فاجأني قطيع من الجمال يعبر الطريق.

مط شفتيه الغليظتين، وهو يغمغم:

- هذا يحدث باستمرار.

ثم أشار إلى مائدة خالية، مستطردا:

- انتظر هنا، حتى يحين دورك.

قلت في عصبية لم أتعمدها:

- أي دور؟!.. أسألك عن هاتف..

شد قامته، فبدا أكثر طولا وصرامة، وهو يقول:

- لا يوجد هاتف.. الهواتف لا تعمل هنا.. انتظر، وسيحين دورك.

في مثل موقفي، لم يكن أمامي سوى أن أفعل ما يطلبه، اتجهت إلى المائدة الخالية، وجلست أنتظر، دون أن أدرى حتى ما الذي أنتظره..

لم أدر حتى كم مر من الوقت، قبل أن أشعر بيد توضع على كتفي من الخلف، وأسمع صوتا مألوفا يقول:

- إذن فقد وصلت.

التفت إلى صاحب الصوت، هاتفا:

- (فوزي)؟!.. كيف علمت أنني هنا؟

ابتسم دون أن يجيب، وجذب مقعدا؛ ليجلس إلى جواري، وهو يسأل:

- ما رأيك في المكان؟!

سألته في حذر:

.. أأنت مالكه؟!

ضحك: قائلا

- بل أزوره للمرة الأولى.

- ولكن كيف علمت أنني هنا؟

مرة أخرى، تجاهل إجابة السؤال، وهو يقول في حماس:

- هل تعلم؟ على الرغم من أنني ناشر كتبك، ومن كل ما تحققه من نجاح وانتشار، إلا أنني لم أكن أصدق حرفا واحدا، مما تكتبه فيها.

قلت في ضيق:

- ولكنك ربحت منها عشرات الألوف.

ضحك مرة أخرى، ولوح بيده، قائلًا:

- بل مئات الألوف في الواقع.

قلت في غيظ:

- لو أنك تربح مئات الألوف مما أكتبه، فلماذا رفضت إقراضي مقدم سيارة كبيرة؟

بدا عليه الأسف لحظة، ثم عاد يبتسم، وهو يميل نحوي، قائلًا:

- أنت تعرف قاعدة الناشرين الذهبية.

نظرت إليه في تساؤل محنق، فتراجع في مقعده، مضيفا وابتسامته تتسع:

- لماذا تدفع أكثر مادام بمقدورك أن تدفع أقل؟

شعرت بالغيظ، ليس لإجابته وحدها، ولكن للأسلوب المستهتر الذي نطقها به، فقلت في شيء من الحدة:

- لماذا إذن كان هذا الموعد العجيب، الذي خسرت فيه سيارتي الصغيرة، وكدت أخسر فيه حياتي أيضا؟!

رمقني بنظرة طويلة، قبل أن يجيب:

- هل تعرف تاريخ اليوم؟!

أجبته في حدة:

- بالطبع.. إنه الأول من إبريل، عام..

بترت عبارتي دفعة واحدة، وأنا أحدق فيه، ذاهلا وغاضبا في الوقت ذاته...

الأول من ابريل؟!..

أمن الممكن أن يكون الاستهتار قد بلغ به هذا الحد؟ ...

أكل هذا مجرد خدعة الأول من إبريل؟!

أقسم أن أقتله، لو أن الأمر كذلك...

لا.. لن أقتله فحسب، بل سأمزقه إربا..

- هي كذبة إبريل إذن؟!..

هتفت بالعبارة، بكل ما اعتمل في نفسي من غضب، وتوقعت منه ضحكة عالية، تحمل الكثير من المرح والاستهتار..

والاستفزاز أيضا..

ولكن العجيب، أنه حدق في وجهي بدهشة، وهو يغمغم:

- كذبة إبريل؟!.. أية سخافة هذه؟!

قلت في حدة:

- لا تحاول مواصلة اللعبة معي.. منذ البداية، لم أشعر بالارتياح، عندما تلقيت رسالتك.. ووجودك هنا يؤكد أنك قد دبرت كل شيء؟.

ظل صامتا لحظة، ثم مال نحوي، يسألني:

- وما الذي دبرته بالضبط؟!

أجبت بنفس الحدة:

- اضطراري للسفر ليلا، وقطيع الجمال، وهذا المكان، و..

توقفت عن الاستطراد دفعة واحدة، وبدت الحيرة على وجهي، مما جعله يميل أكثر، متسائلًا بابتسامة هادئة:

- وماذا؟

لم أستطع إجابته هذه المرة..

فكل ما قلته كان مجرد خيال جامح..

كيف كان سيعلم موعد وصولي ليعد قطيع الجمال؟

وكيف جعل هاتفه يجيب بهذا الصمت المريب؟!

وكيف؟!

وكيف؟!

كانت الأسئلة تنهال على رأسي، عندما تنهد هو، وغمغم:

- من الواضح أنك لم تفهم بعد.

وتنهد مرة أخرى، قبل أن يضيف:

- إنه قدرنا يا صديقي.. أن يفصلنا يوم واحد.

سألته في صعوبة، وكل قصص الرعب التي كتبتها، تنهمر على رأسي كالمطر:

- ماذا تعني؟!

أجاب في هدوء:

- لقد لقيت أنا مصرعي أمس.. اقتحم كاتب مجنون مكتبى، في التاسعة مساء، عندما كنت أهم بالانصراف، وأطلق النار على رأسي مباشرة، لست أدري كيف انتبهت فجأة، إلى تلك البقعة الحمراء فوق حاجبيه، والتي تجمع حولها دم متجلط، وشعرت برعب شديد، وهو يشير إليها، مستطردا:

- وكل هذا بسبب خلاف على ألف جنيه!.. هل يمكنك أن تتخيل؟!.. ألف جنيه فحسب، دفعته إلى قتلى..

شحب وجهي، لو أن هذا المصطلح يصلح في حالتي، وغمغمت في انهيار:

- أيعني هذا أنني..

قاطعني في هدوء:

لقيت مصرعك في حادث السيارة.. نعم.. قلمك قتلك يا صديقي.. كنت تضعه في جيب سترتك، فانغرس في قلبك مع الصدمة.

مع قوله، لاحظت ذلك القلم، الذي كتبت به معظم رواياتي الناجحة، وقد برزت مؤخرته من موضع قلبي مباشرة، محاطة بالكثير من الدماء، في نفس اللحظة التي ظهر فيها ذلك الطويل الصارم إلى جوارنا، وهو يقول في غلظة:

- هيا.. لقد حان دوركما.

نهضت مع (فوزي) في استسلام، متجهين نحو ذلك الباب، الذي يشع منه ضوء مبهر، والذي يعبره بعض رواد المكان، و(فوزي) يسألني في هدوء:

- ما رأيك؟!.. أيهما أكثر رعبا؟!.. رواياتك، أم الحقيقة؟!

لم أجب سؤاله، وأنا أغمغم في أعماقي...

ليتها كانت كذبة إبريل!!..

ليتها كانت كذلك!.

☆ ☆ ☆ ☆

الفأر..

«هناك فأر في العوامة»

صرخت زوجة مهدي بالعبارة في فزع كبير، وهي تهرع إليه في شرفة تلك العوامة، التي استأجرها مؤخرا على نيل القاهرة، فزفر في ضيق لأنها قطعت عليه خلوته اليومية، ومطالعته التقليدية للصحف، وسألها في لهجة، لم يحاول حتى إخفاء نبرة التبرم فيها:

- كبير أم صغير؟!

حدقت فيه مستنكرة، قبل أن تعاود الصراخ في غل:

- أهذا كل ما يشغلك؟! كبير أم صغير؟! إنه فأر.. فأر قذر صغير، فوجئت به يقفز في وجهي، عندما فتحت دولاب الخزين.

زفر في سخط، وأغلق الجريدة التي يطالعها، ووضعها في حرص على المنضدة الصغيرة أمامه، كما لو أنها مصنوعة من الزجاج، والتفت إليها وهو ينهض، مغمغما:

- ربما أفزعه مقاطعتك لخلوته.

صاحت في صوت مرتفع، هو أكثر ما يكرهه فيها:

- أقول لك فأر يا رجل، فتقلب الأمر إلى مزاح؟! ألا تدرك كم من الأمراض والمخاطر، تنقلها الفئران إلى البشر؟!

اتجه نحو المطبخ، مغمغما في ضيق:

- أتدركين أنت كم الإزعاج، الذي يسببه البشر للفئران؟!

صرخت بكلمات مختلطة، لم يتبينها جيدا، ولكنه أراح نفسه بدخوله المطبخ، وإغلاق الباب خلفه، وجال بعينيه في المكان، بحثا عن ذلك الفأر..

كان يتوقع أن يكون المطبخ خاليا، خصوصا أن زوجته قد هرعت منه فزعة، تاركة بابه خلفها مفتوحا، وسيفر منه الفأر حتما، إلى مكان أكثر أمنا..

ولكنه، ولدهشته، عثر عليه أسفل الحوض..

كان فأرا صغيرا، يختفي فزعا، وراء بعض أدوات التنظيف، ولكن ذيله الطويل كشف موضع اختبائه، وكأنه لم يلعب الغميضة يوما في حياته..

وفي حذر التقط مهدي عصا غليظة تستخدم لبلوغ سقف المطبخ وتنظيفه، وصوّبها في دقة وإحكام، ثم هوى بها على الفأر مباشرة..

ومع صرخة ألم رفيعة صغيرة، سقط الفأر جثة هامدة..

وكقائد ظافر باسل، خرج من المطبخ، وهو يحمل جثة الفأر، في منشفة ورقية، من مناشف المطبخ، قائلا في زهو حاول أن يلبسه ثوب التواضع:

- ها قد انتهت المشكلة.

حيّته زوجته بتصفيق فرحة وانتصار، هاتفة:

- لقد أصابني بالرعب.

ثم حدّقت في جثة الفأر الصغير، قبل أن تستعيد فزعها، هاتفة:

- إنه ليس الفأر، الذي هاجمني في المطبخ.

لم يفهم ما الذي تعنيه، فلوح بجثة الفأر في وجهها، قائلا في عصبية:

- لقد عثرت عليه في المطبخ.

قالت في إصرار:

- ولكنه ليس ما هاجمني.. هذا رمادي اللون، والآخر كان بنيا.

أحنقه إصرارها، وأحنقه أكثر دقة الملاحظة التي تدعيها، وقال في حدة:

- ربما لم..

قاطعته في حزم:

- إنه ليس هو.

كان هذا يعني بالنسبة إليه، أنه لن يعود لمطالعة صحفه، وأنه سيضيع ساعتين أو أكثر، في البحث عن الفأر الثاني، في كل ركن من العوامة، ولكن لم يكن لديه خيار، فزفر في توتر، وبدأ مهمة البحث..

وبعد أكثر من ساعة، كاد ظهره خلالها ينقسم، من فرط ما أزاح من قطع الأثاث، وخصوصا في حجرة النوم الوحيدة، ألقى جسده المكدود على أقرب مقعد صادفه، وهو يقول:

- ليس له من أثر.

بدت شديدة القلق تتلفت حولها، كما لو أنها في قلب غابة مطيرة تكتظ بالحيوانات المفترسة التي يمكن أن تهاجمك في أي لحظة، وهي تقول:

- ولكنه هنا حتما، في مكان ما.

زفر مرة أخرى في يأس محنق، وغمغم محاولا إنهاء الموقف:

- كل العوامات تحوي فئرانا.. هذا ما سمعته من جيراننا، في العوامات الأخرى.

هتفت في حنق:

- لماذا جعلتنا نترك شقتنا، ونستأجر هذه العوامة إذن؟!

أجابها في حنق مماثل:

- هل كانت شقتنا بمنأى عنهم؟! ألا تتذكرين ذلك الفأر الذي تسلل إلينا من منور العمارة؟! لقد كان أكبر حجما من هذا.

بدا وكأن الحنق صار جزءا من حديثهما المعتاد، وهي تهتف:

- بعض السكان كانوا يلقون قمامتهم في منور العمارة، على الرغم من وجود رجل قمامة، يمر لحملها كل يوم.

لوح بيده، هاتفا:

- وهنا أيضا.. بعض السكان يلقون قمامتهم في النيل، ناهيك بمن يلقون بعض الحيوانات النافقة فيه.

لوحت بسبابتها، هاتفة:

- تذكر أنك قد ألقيت جثة الفأر في النيل.

قلب كفيه، وهو يخفض من هتافه، قائلا:

- وأين كنت سأرميها إذن؟!

مطت شفتيها، معلنة أن الجواب ليس مناسبا لقولها، وعادت تتلفت حولها بنفس القلق، وهي تقول بصوت مرتجف:

- لا يمكنني أن أقضي ليلتي هنا، وأنا أعلم بوجود فأر في العوامة.

حاول أن يبدو مازحا، وهو يقول:

- سيكون من حسن حظنا، لو أنه فأر واحد.

نظرت إليه في فزع، هاتفة:

- ماذا تعني؟!

أشار بيده، مجيبا:

- نظرا لتقارب حجميهما، فهما شقيقان بالتأكيد، وما دامت الفأرة تلد ما بين ستة إلى ثمانية فئران، في المرة الواحدة، فهذا يعني..

قاطعته هاتفة بكل الفزع:

- لن أبيت ليلتي هنا.

لم يدر لماذا شعر بالارتياح لقولها هذا، حتى أن غمغم في تخاذل:

- أين ستذهبين؟!

هتفت:

- سأبيت مع أمي، حتى تحضر شركة من شركات التطهير، وتضمن عدم وجود فئران هنا.

صمت لحظات..

وصمتت لحظات..

وخلال صمتهما، تطلع كل منهما إلى الآخر، قبل أن يقطع هو حبل الصمت بمقص حاد:

- فليكن.

ونهض عائدا إلى شرفته، حيث ترك صحفه، متابعا:

- سأتصل بواحدة من تلك الشركات اليوم، وأحدد معها موعدا.

رمقته في غل، من موافقته السريعة هذه، وسألته في غضب وهي تتجه نحو حجرة نومهما، لتحمل ثيابها:

- ما الذي يعجبك في هذه العوامة؟!

أشار بيده مجيبا:

- يكفي تناول الإفطار على النيل كل صباح.

صاحت في حدة:

- تناوله وحدك.

ثم أضافت، وهي تغلق باب الحجرة خلفها:

- أو ادع أحد الفئران لتناوله معك.

ضحك من قلبه، وعاد إلى صحفه يطالعها في نهم، حتى أنه لم يهتم بتوديعها، وهي تخبره أنها ستأخذ سيارتهما، وسمعها تغلق باب العوامة خلفها، وسمع وقع خطواتها وهي تسرع على مرساتها، وكأنها تفر من ديناصور وحشي، ولم يشعر بالارتياح إلا عندما سمع صوت سيارتهما تبتعد، فغمغم:

- أخيرا.. ليلة من الهدوء.

ظل جالسا في شرفة العوامة، والشمس تعبر في بطء، واكتفى بتناول قليل من الجبن الأبيض، وهو يراقب مشهد غروب الشمس البديع، حتى أظلمت الدنيا من حوله، وبدأت أضواء ليل القاهرة تصنع ذلك المشهد البديع، الذي طالما عشقه..

ومع مرور الوقت، بدأ يستمتع بغياب زوجته عنه..

الهدوء يسود كل شيء من حوله..

حتى ضوضاء الشارع، لم يعد يشعر بها..

ألقى نظرة على ساعته، وأدهشه أن اقتربت عقاربها من منتصف الليل..

كيف مر كل هذا الوقت، دون أن يشعر؟!

كيف؟!

قام من مجلسه في الشرفة، ليشعل ضوء الصالة الصغيرة، إلا أنه فوجئ بانقطاع التيار الكهربي فيها، على الرغم من أن الأضواء واضحة في كل مكان حوله، حتى في العوامات المحيطة به..

وكأن هذا يعني أنه عطل خاص بعوامته..

لم يبال كثيرا، مع اعتياده مثل هذا الأمر، والتقط مصباحا يدويا، أشعله وهو يغمغم:

- يا لها من عوامة قديمة! هذا يحدث مرتين أسبوعيا على الأقل.

لم يكن ضوء المصباح قويا، مما يوحي بأنه يحتاج إلى تغيير بطارياته، إلا أنه بدا له كافيا ليصل به إلى الطابق السفلي، ويصلح فيوزات الكهرباء القديمة، فتعود الأضواء إلى السطوع..

حمل المصباح اليدوي، إلى الطابق السفلي من العوامة، والذي ينخفض عن منسوب مياه النيل، حيث وضعت الفيوزات القديمة..

ومن بين شفتيه انطلق صفير بلحن قديم، حاول أن يسلي به نفسه، وهو يهبط في درجات ذلك السلم الخشبي المتهالك إلى الطابق السفلي..

وعلى ضوء المصباح الأكثر تهالكا، رأى علبة الفيوزات مفتوحة في إهمال، وبداخلها فأر صغير صريع، تفوح منه رائحة احتراق، فابتسم مغمغما:

- أنت فعلتها بنفسك.. قرضت أسلاك الكهرباء، فصعقك التيار.

كان يهبط درجة السلم قبل الأخيرة، عندما سمع قرقعة قوية أسفله، انهارت درجة السلم بعدها تحته، فاختل توازنه، وهوى من هذه المسافة الصغيرة..

حاول أن يتشبث بأي شيء، إلا أنه لم يجد ما يتشبث به، فارتطم جسده بالأرض، وعلقت قدمه بتلك الدرجة المكسورة، ليسمع قرقعة أخرى، مصحوبة بآلام شديدة سرت في جسده كله..

استغرق منه الأمر لحظة واحدة على الرغم من آلامه، ليدرك أنه في مأزق لا يحسد عليه.. لقد كسرت ساقه، وقدمه محشورة في درجة السلم، وزوجته ليست هنا، وهاتفه المحمول تركه فوق مائدة الصالة..

يا له من موقف!

إنه سيضطر إلى الصراخ، لعل أحدهم يسمعه ويهرع لنجدته..

وعلى الفور، وضع الفكرة موضع التنفيذ، فصرخ..

وصرخ..

وصرخ..

صرخ أكثر من عشر مرات، بأعلى ما يستطيع..

ولكن أحدا لم يستجب..

كان من الواضح أن المستوى الذي سقط فيه، يحجب صراخه عن الآخرين، ويحبسه في الطابق السفلي فحسب..

وبزفرة يائسة اعتادها، ترك ظهره يسترخي على الأرض، وهو يتساءل: كيف يمكن الخروج من هذا الموقف؟!

ثم سمع تلك الحركة من حوله، فأدار ضوء المصباح المحتضر نحوها، و..

واتسعت عيناه في رعب..

رعب لم يتصور أن يشعر به، في حياته كلها!

فلقد انعكس ضوء المصباح على عشرات العيون الصغيرة، التي تتطلع إليه في ترقب، وتجذبها نحوه رائحة الدماء، التي تسيل من إصابة قدمه..

كانت عشرات الفئران، تقف في انتظار انهياره، لتنقض عليه..

أدار ضوء المصباح، وتضاعف رعبه ألف مرة..

إنها ليس عشرات الفئران..

إنها مئات..

مئات تحيط بكل ما حوله..

وكلها تنظر في تحفز..

صرخ فيها، فابتعدت قليلا، ثم عادت وقد أدركت أن كل ما يملكه هو الصراخ..

صرخ باسم زوجته..

وجيرانه..

ولم يستجب أحد..

ثم راح ضوء المصباح يتهاوى، حتى صار أشبه بضوء يأتي من مائة كيلو متر..

وفي انهيار، راح يبكي مغمغما:

- لن تكون هذه هي النهاية.. لن تكون كذلك.

ولكن مع نهاية غمغمته، انطفأ ضوء المصباح تماما..

وسمع وقع الأقدام الصغيرة تقترب..

وصرخ مهدي..

صرخ كما لم يصرخ من قبل..

صرخ..

وصرخ..

وصرخ..

وفي هذه المرة أيضا، وحتى خمدت صرخاته تماما.. لم يستجب أحد.

☆ ☆ ☆ ☆

حلـم..

كل شيء كان يبدو مختلفا عما اعتاده..

كل شيء..

السماء لم تعد زرقاء كما ينبغي أن تكون..

لقد كانت حمراء..

حمراء بلون الدم..

وفي حيرة، رفع عينيه إلى السماء..

أي سحب تلك، التي يراها فيهاا..

سحب خضراء، قليلة، تعبر تلك السماء الحمراء في سرعة مدهشة، وكأنها زوارق بخارية هلامية، تمخر عباب محيط أحمر قان..

ثم ما هذا الذي يطل عليه؟

ثلاثة أقمار، متفاوتة الأحجام..

بل أربعة..

هناك ذلك القمر، الذي يبرز جزء منه، من خلف قمم الجبال الزرقاء العالية في الأفق..

حتى تلك الصحراء الممتدة أمامه، برتقالية اللون، تتألق وسطها حبيبات أرجوانية، ببريق يشبه بريق الماس..

المشهد كله يبدو أشبه بلوحة قديمة، اختل مؤشر الألوان فيها، فمنحها مظهرا مخيفا، لم يألف مثله، حتى في أعمال (الجرافيك)، التي يتقنها ويحترفها..

أهو على كوكب آخر؟!..

ولكن كيف؟!

لقد أوى إلى فراشه، بعد أن انتهى من عمله، وكان كل شيء حوله طبيعيا تماما..

فكيف يمكن أن ينتقل إلى كوكب آخر؟!..

كيف؟!..

ثم إنه يتنفس على نحو طبيعي تماما..

لا يشعر بأية صعوبة في أنفاسه..

ولا ثقل..

ولا حتى بأي خلل، في جهازه التنفسي..

أضف إلى هذا أنه من المستحيل أن ينتقل شخص ما، من الأرض إلى كوكب كهذا، في ليلة وضحاها!!..

ولكن مهلا.

هذا المشهد يبدو له مألوفا، على الرغم من ثقته في أنه يراه للمرة الأولى..

فكيف يبدو له كذلك؟!..

كيف؟!..

مرة أخرى، رفع رأسه إلى السماء، وحاول أن يفهم..

كل شيء مازال مختلفا..

وذلك النجم الضخم، الذي يبدو من بعيد.. أهو الشمس؟ ...

إنه بالفعل يشبه قرص الشمس..

ولكنه أصغر حجما..

أصغر بكثير..

ثم إن لونه يختلف..

إنه يجمع ما بين اللون البنفسجي في منتصفه، والذي يميل إلى الوردي عند أطرافه..

هل يمكن أن تكون هناك شمس بهذا الجمال؟!

ليس على الأرض بالتأكيد..

شعر وكأن ساقيه ثقيلتان، تحملانه بالكاد، فجلس أرضا، ودفن رأسه بين كفيه..

لا يمكن أن يكون هذا حقيقيا..

إنه حلم..

هو حتما حلم..

امتزج المشهد كله بكلمة (حلم) هذه، والتي راحت تتردد في أعماق رأسه، وتشير إلى شيء ما، عجز عن إدراكه..

لماذا يعجز عن إدراك الكثير من الأشياء؟!..

لماذا يشعر أن ذاكرته تعاني؟١..

لماذا تنتشر فيها فراغات، لا يمكنه رتقها؟!

لماذا؟!..

لماذا؟!

ثم لماذا؟!

كان يشعر باضطراب شديد، جعله يرفع كفيه عن رأسه، ويعيد التطلع إلى ما حوله، والحيرة تملأ نفسه..

أهو نائم يحلم؟..

لماذا لا يشعر إذن بأنه نائم؟!

النائم لا يشعر بجسده على هذا النحو.

ولا يشعر بما حوله بهذا الوضوح!!..

إلا لو كان هذا حلما، لم يمر به من قبل..

أو أنه قد مر به، ولكنه لا يذكره..

وفي كل الأحوال، فهذا هو التفسير الوحيد..

إنه حلم..

هو حتما حلم..

ولكن ما يشعر به من اضطراب وضياع، جعله ينقل الكلمة، من (حلم) إلى (كابوس)..

نعم.. هو كابوس..

كابوس انتابه، بعد عمله الشاق..

لابد وأن يحرص على عدم تناول تلك الوجبات السريعة الجاهزة، التي تثقل المعدة، وتبعث مثل تلك الكوابيس..

لابد وأن يحرص على عدم تناولها، قبيل النوم بالتحديد..

نعم.. هذا هو التفسير..

الوجبات الجاهزة، المشبعة بالدهون..

ولكن هل فعل؟!..

هل تناول وجبة منها، قبل أن يأوي إلى فراشه؟!..

هل؟!..

ولماذا لا يذكر هذا؟!..

لماذا لا يذكر أي شيء؟!..

أهكذا تكون الكوابيس؟!..

أهكذا ينفصل فيها الإنسان عن واقعه؟!..

عن حياته؟١..

عن وعيه؟!..

ثم ما هي الكوابيس والأحلام بالضبط؟!..

يقول البعض: إن الروح تنفصل عن الجسد، مع أحلام المرء..

وأنها تنطلق هائمة بلا حدود..

تنطلق في عالم آخر..

عالم الأحلام..

والكوابيس..

فهل هذا ما حدث معه؟!

هل انفصلت روحه عن جسده، وهامت عبر الزمان والمكان؛ لتصل إلى هذا المكان العجيب؟!

هل؟!

يا لها من مسافة، تلك التي قطعتها، عبر الزمان والمكان؛ لتصل به إلى كوكب آخر..

لو أن هذا ما حدث، فهي حالة تستحق التسجيل.

حالة خاصة..

خاصة جدا..

ولكن من سيصدقه لو رواها؟!..

وماذا سيقولون عنه إن ذكرها؟!..

هل سيصفونه بالجنون؟!..

أم بالخَبَل؟ ...

أم سيتهمونه بأنه يسعى إلى نيل شهرة لا يستحقها؟!..

ولكن لماذا يسعى لنيل الشهرة، وهو شهير بالفعل في عالمه؟!

الكل يسعى إليه طوال الوقت..

الكل يعترف بموهبته..

وبعبقريته..

وفنه..

ولكن هل سيغفر له هذا، لو أنه أخبرهم؟!

تجاربه وخبراته تؤكد له أن الناس لا يرحمون..

ولا يغفرون..

أبدا..

مهما كانت شهرته في مجاله، لن يغفروا له..

سيصبح إما مثار سخريتهم..

أو غضبهم..

أو، على أحسن تقدير، شفقتهم..

وستطل من عيونهم نفس تلك النظرة، التي رأها عقب الحادث..

الحادث؟!..

كيف لم يذكر ذلك الحادث؟!..

لقد كان يعبر الطريق، حاملا جهاز الكمبيوتر الصغير الذي يحوي كل أعماله، عندما ظهرت تلك السيارة فجأة، و....

وماذا؟!..

إنه حتى لا يذكر ماذا حدث بعد هذا!!..

كل ما يذكره هو أنه ينظر، بعينين نصف مغلقتين، إلى عشرات الوجوه، والعيون التي تطل منها الشفقة ويرتسم فيها القلق!!..

كيف غاب هذا عن ذهنه؟!

وماذا حدث بعدها؟!..

هل سقط في غيبوبة ما؟!..

أهو مازال في غيبوبة؟!

السؤال الأهم: هل يمكن أن يحلم خلال الغيبوبة؟!..

ولكنه قرأ قديما، أن النائم ينسى معظم أحلامه، بعد أن يستيقظ من نومه..

فهل هذا ما سيحدث له عندما يستيقظ؟

أو عندما يخرج من غيبوبته؟!..

أم أن الغيبوبة أطلقت تلك الطاقات الروحية، الكامنة داخله، فانطلقت روحه تهيم بعيدا، عبر الزمان والمكان، حتى بلغت هذا العالم العجيب؟!..

انتابه الخوف، من أن تكون غيبوبته من ذلك النوع، الذي لا

يستيقظ منه المرء أبدا؛ فهذا سيعني أنه سيبقى في هذا العالم طويلا..

بل إلى الأبد..

وكلمة: الأبد هذه قد تعني لحظة موته..

تلك اللحظة التي تنفصل فيها الروح عن الجسد..

هذا هو الأبد الحقيقي..

عاد يتطلع إلى ذلك العالم العجيب من حوله، والذي تخالف ألوانه كل ما اعتاد عليه في عالمة الفعلي..

ويا لها من صورة، ويا له من مشهد!!..

لو طلب منه أحدهم رسم صورة (جرافيك) لعالم آخر، لما أمكنه أن يصنع ما هو أكثر إبداعا من هذا..

تناسق الألوان..

تناغمها..

تلك السحب المسرعة في السماء..

و..

«هذا أفضل أعمالك بحق..»

انتزعته العبارة من أفكاره في عنف، فالتفت إلى صاحبها، الذي ظهر في المشهد فجأة، واتجه نحوه، وهو يتأمل ما حوله في إعجاب، مستطردا:

- حتى السحب تبدو حقيقية تماما.. أراهن أن هذه القاعة ستصبح حديث المدينة كلها.

هتف به، في شيء من الذعر:

- من أنت؟!

توقف القادم مصعوقا، وحدق فيه، مجيبا:

ماذا أصابك يا (هيثم)؟!.. أنا (أحمد)، شريكك في المكتب.

- (أحمد)؟!..

نعم.. إنه يذكره الآن..

لقد أسسا معا شركة (الجرافيك)..

كيف لم يذكره مباشرة؟!..

كيف؟!..

اقترب منه (أحمد)، ووضع يده على كتفه، وهو يقول مشفقا:

- منذ ذلك الحادث، وذاكرتك لم تعد كما كانت.. إنك تصاب بنوبات حادة من فقدان الذاكرة، تستغرق بضع دقائق.. من حسن الحظ أن الحادث لم يفقدك موهبتك، ولا قدراتك على الابتكار، وإلا لما فزنا بصفقة تحويل هذه القاعة، إلى عالم فضائي جميل كهذا..

فجأة استعاد كل ذاكرته..

إنه ليس عالما غريبا..

وليس حلما..

إنه عالم صنعه هو..

ولكنه فقط.. نسي.

☆ ☆ ☆ ☆

ابني..

بكت (سمر) طويلا في تلك الليلة، كما لم تبك في حياتها من قبل..

ولم تتصور حتى أنها قد تفعل.

فمنذ زواجها، وهي تحلم بأن تنجب، وبأن تصير أما، كما تحلم كل زوجة في الوجود كله..

وعلى الرغم من أن زواجها، يعد من كل الوجوه التقليدية ناجحا، ومن أنها تعشق زوجها (نجيب)، الذي ربطته بها علاقة حب طاهرة شريفة، طوال سنوات الكلية، وجمعهما رباط الزواج المقدس عقب تخرجهما معا، من كلية العلوم، إلا أن ذلك الزواج كان ينقصه أهم ما فيه..

الإنجاب..

ست سنوات مضت على زواجهما، دون أن تنجب..

والعمر يمضي..

ومع مضي العمر، كانت تصاب بالذعر أكثر وأكثر..

وبعد عامهما الثاني من الزواج، بدأ كلاهما في استشارة الأطباء..

ولكن حتى هذا لم يسفر عن شيء..

الفحوص والتحليلات كلها، أثبتت أن كليهما سليم مائة في المائة..

لا توجد عقبة واحدة، تمنعهما من الإنجاب..

كل ما قالته لها طبيبة، تثق فيها كثيرا، أن المشكلة ليست في أيهما، ولكن فيهما معا..

إنها لن تستطيع الإنجاب، إلا باحتمالات ضئيلة للغاية، لو أنها ظلت متزوجة من (نجيب)!..

وهو لن يستطيع الإنجاب، لو أنه ظل متزوجا بها..

كلاهما قادر على الإنجاب، لو انفصلا، وارتبط كل منهما بآخر..

وكانت صدمة عنيفة..

صدمة لها..

وله..

لقد ظلا صامتين، بعد عودتهما من زيارة تلك الطبيبة، لا يتبادلان الحديث طوال نصف يوم كامل..

وعندما استيقظت في الصباح، لم تجد (نجيب) إلى جوارها..

لقد كان يجلس وحده في الشرفة، حزينا، مهموما، شاردا، حتى إنه لم يشعر بها، وهي تقترب منه، وتلقى عليه تحية الصباح، حتى جلست إلى جواره، تسأله:

- هل أعد لك طعام الإفطار؟!

التفت إليها بتلك النظرة الحزينة البائسة، وهو يغمغم:

- اجلسي يا (سمر).

غمغمت في إشفاق:

- أنا جالسة بالفعل.

حاول أن يبتسم، إلا أن الحزن العميق، الذي يملأ ملامحه، أعجزه عن هذا، ثم ما لبثت تلك المحاولة أن تلاشت، وهو يسألها:

- ما رأيك فيما قالته الطبيبة أمس؟!

ازدردت لعابها في صعوبة، مغمغمة:

- قالت: إن هناك احتمالا.

ربت على يدها، وكأنه يشكرها على محاولتها، وأشاح بوجهه عنها، وهو يقول:

- كلانا خريج قسم الرياضيات بكلية العلوم، ونعلم أن واحدا في المائة ليس احتمالا يذكر.

قالت في صعوبة:

- ولكنه لا يعني الصفر.

تنهد في مرارة:

إنني أذكر ما قالته جيدا.. كل منا يمكن أن ينجب، لو تزوج بآخر..

لم تحاول التعليق، فتابع في مرارة أكثر:

- وأنا أعلم كم تتوقين إلى الإنجاب.

ازدردت لعابها في صعوبة، وهي تسأله:

- ماذا تريد أن تقول يا (نجيب)؟!

بدت ابتسامته أشد حزنا، من أن توصف حتى بهذا، وهو يقول:

- أنت تعرفينني جيدا يا (سمر)، وتعرفين مفهومي للحب الحقيقي؛ فالمحب إذا كان فعلا يحب، لابد وأن يضع سعادة من يحب، فوق سعادته هو، وعليه أن يفعل ما يسعد من يحب، حتى ولو كانت سعادته هي الثمن.

شعرت بقلق، جعلها تسأله:

- ماذا تريد أن تقول يا (نجيب)؟!

كانت تدرك جوابه، حتى قبل أن ينطقه، بكل مرارة الدنيا:

- أريد أن أقول: إن زواجي بك، هو ما يقف عقبة أمام تحقيق حلمك الأكبر يا (سمر).. حلمك بأن تكوني أمًا.

أصابها شعور عجيب، جعلها تغمغم، في تخاذل لم تتوقعه من نفسها:

- ولكنني أحبك.

داعب شعرها في حنان، مغمغما:

- وأنا أيضا أحبك، ولا أستطيع تصور حياتي بدونك، ولكنني أعلم أنه، ومع مرور الوقت، ستتهمينني في أعماقك، بأنني المسئول عن تحطيم حلمك، ودون حتى أن تدركي، سيتلاشى حبي من قلبك، وستحل محله كراهية دفينة، لا يمكنني احتمال مجرد تصورها من الآن.

بكت في صمت، فداعب شعرها مرة أخرى، وحاول أن يبتسم، مضيفًا:

- أما لو انفصلنا الآن، فربما يبقى حبي في أعماق قلبك، حتى وأنت زوجة لرجل آخر.. وسرعان ما سينسيك طفلك منه هذا الحب، الذي سيذوب في حبك لأمومتك.

كررت باكية:

- ولكنني أحبك.

رفعت عينيها وهي تقولها، وهالها أن تشاهد دموعه، لأول مرة في حياتها، وهي تغرق وجهه، قبل أن يغلق عينيه، مغمغما في صعوبة:

- (سمر).. أنت..

وضعت يدها على فمه في فزع:

- أرجوك، لا تنطقها.

بكي، وبكت، ثم أمسك كتفيها، قائلا:

- ولكن هذا هو..

قاطعته في انفعال:

- ليس الآن على الأقل.. ليس في لحظة انفعال.. امنح نفسك وامنحني فرصة للتفكير..

استغرقت محادثتهما عشر دقائق فحسب، اتفقا بعدها على أن يبتعدا عن بعضهما لأسبوع واحد، قبل اتخاذ مثل هذا القرار..

ولأول مرة منذ زواجها، تقضى (سمر) ليلتها في فراشها وحيدة..

ولهذا بكت..

يا له من قدر!!..

كيف يخيرها بين حبها وأمومتها؟ ...

كيف؟!

ظلت تبكي، وتبكي، حتى سقطت نائمة..

أو أنها قد فقدت الوعي..

إنها حتى لا تدري..

ولكنها استيقظت قرب الفجر، على ملمس يد لكفها، فغمغمت ناعسة:

- (نجيب).. هل عدت؟!

فتحت عينيها في صعوبة، وكادت تطلق صرخة قوية، لولا أن هتف ذلك الشاب في خفوت:

- لا تخافي يا أمي.. إنه أنا.

شهقت مذعورة، وهي تستر جسدها:

- أمك؟!

مال الشاب نحوها بابتسامة عذبة، وهو يجيب:

- نعم يا أمي.. أنا ابنك.. (نادر نجيب على).

اتسعت عيناها عن آخرهما، وهي تحدق فيه مذعورة، مغمغمة:

أأنت مجنون؟!.. أم أنك لص؟!

هز رأسه في بطء، دون أن يفقد ابتسامته، وقال في هدوء:

- لا هذا ولا ذاك.. أنت وأبي خريجا كلية العلوم.. أخبريني إذن، هل رأيت مثل هذه التكنولوجيا من قبل؟

مد يده إليها، بمكعب من الكريستال النقي، فتراجعت مذعورة، إلا أنه قال بنفس الهدوء:

- حسنا يا أمي.. لا تلمسيه، إذا كان هذا يخيفك... ولكن شاهدي ما يفعله.

مسّ بسبابته جزءا من المكعب، فارتفع من أعلاه شعاع من الليزر، جعلها تطلق شهقة فزع، قبل أن ترتسم فوقه صورة هولوجرامية، ثلاثية الأبعاد، لحفل عيد ميلاد، يضمها وزوجها (نجيب)، مع طفل في عامه الأول، يتعلق بها في حب..

"إنه أنا، في عيد ميلادي الأول.. بعد ثلاث سنوات من الآن..".

قالها الشاب الوسيم في هدوء باسم، فحدقت في المشهد الهولوجرامي، مغمغمة، في مزيج من الخوف والشك والذهول:

- مستحيل!

تعاقبت المشاهد، وهو يقول، محاولا بث الهدوء في نفسها:

- وهذا يوم تخرجي من المرحلة الابتدائية، وهذه صورتي، وأنا أتسلم شهادة تخرجي الجامعية.

سألته في عصبية:

- ولماذا لا أرى نفسي أو أرى (نجيب) في المشاهد الأخرى؟

اتسعت ابتسامة الشاب، وهو يقول:

لا أريدك أن ترى كيف تتقدمين في العمر.. أنت أخبرتني أن هذا لن يروق لك.

اتسعت عيناها أكثر، وهي تقول:

- لست أفهم.

تنهد في عمق، قائلا:

- ليت لدى الوقت لأشرح لك، ولكنني سأعود إلى زمني خلال ثوان... هذه أطول فترة يمكنني أن أقضيها في الماضي.

رددت ذاهلة مذعورة:

- زمنك؟!.. ماض؟!..

بدا متعجلاً، وهو يقول:

- المهم يا أمي أن تدركي أن العلم يتطور في سرعة، وأن نسبة الواحد في المائة الآن، يمكن أن تزيد إلى...

توقف فجأة، وبدا منزعجا بشدة، فهتفت:

- ماذا أصابك؟!

ولكنه اختفى فجأة من أمامها..

تلاشى..

تبخر..

وكانت المفاجأة أقوى من أن تحتملها، فسقطت فاقدة الوعي..

كان (نجيب) يغادر مقر عمله، في ذلك اليوم، عندما وجدها أمامه، تبتسم ابتسامة كبيرة، وهي تقول:

- (نجيب) بك، هل يمكنني أن أدعوك إلى الغداء؟!

ثم مالت على أذنه، تهمس في حب:

- في منزلنا.

هتف في دهشة:

- ولكننا اتفقنا على..

قاطعته في حزم:

- لم نتفق على شيء.. القرار احتاج منى إلى سبع ثوان، وليس سبعة أيام..

حدق فيها بدهشة أكبر، وهو يسألها في قلق:

- هل فكرت في الأمر جيدا؟!

أومأت برأسها إيجابا، وهي تجيب:

- بل حلمت.

ردد في دهشة:

- حلمت؟

تأبطت ذراعه، قائلة في حب:

- نعم.. حلمت.. حلمت أنني لم أعد زوجتك، وكان هذا أسوأ كابوس راودني في حياتي كلها..

بدا قلقا مترددا، فتقمصت الصرامة مرة أخرى، قائلة:

- لماذا لا نكمل هذا الحديث ونحن نتناول الغداء في منزلنا؟!..

لقد أعددت لك الدجاج، بالطريقة التي تعشقها..

غمغم، وهو يسير معها نحو سيارته:

- لست أعشق سواك.

وفي منزلهما، وعندما استعدا للنوم، في نهاية اليوم، انحني (نجيب) يلتقط شيئا ملقى إلى جوار الفراش، وهو يسألها:

- ما هذا بالضبط؟!..

حدقت ذاهلة في ذلك المكعب الكريستالي النقي الذي يحمله..

إنه لم يكن حلما إذن..

ولا حتى كابوس..

وبمنتهى السعادة، التقطت منه ذلك المكعب، وهي تستعيد ملامح ابنها المستقبلي الوسيمة، مجيبة في حب:

- إنه الأمل.

وعانقته بكل الحب..
وكل الأمل..

الحجرة..

اندفع ضابط المباحث الجنائية (شهير)، إلى ذلك المنزل، في (القاهرة) القديمة، على نحو لا يتفق مع طبيعة رجال المباحث، وبدا عصبيا، على نحو مبالغ، وهو يسأل أول ضابط شرطة التقى به:

- هل عثرتم على شيء؟!

هر ضابط الشرطة رأسه نفيا، وهو يجيب في توتر:

- مطلقا.. الرواية التي يرويها سكان المنزل أيضا، تبدو غير قابلة للتصديق.

انعقد حاجبا (شهير) في شدة، وهو يتطلع إلى سكان ذلك المنزل، الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة..

شيخ مجوز، تجاوز السبعين من العمر..

وامرأة طاعنة في السن، تصغره بعشر سنوات على الأكثر..

وامرأة أخرى، يحمل وجهها بقايا جمال قديم، على الرغم من أنها لم تبلغ بدايات الأربعينيات من عمرها بعد..

وبنفس العصبية، سأل ثلاثتهم:

- ماذا حدث هذه المرة؟!

أحنى الشيخ رأسه دون إجابة، وراحت العجوز تبكي في مرارة، في حين أشارت المرأة إلى حجرة في نهاية الصالة، قائلة:

- نفس ما حدث، في المرة السابقة.

أشعل سيجارته في عصبية، تشف عن كونه يواجه الموقف نفسه، الذي واجهه في مرة سابقة:

- أريد سماع التفاصيل.

علا نحيب العجوز، وراح الشيخ يبكي بصوت مسموع، وأجابته المرأة مرتجفة:

لقد نصحناه بألا يدخل حجرة الجن، ولكنه أخبرنا بأنها خرافات، وأصر على الدخول، و..

لم تستطع إتمام حديثها، من شدة ارتجافها، فأشار إلى أحد الجنود من حوله في صرامة:

- أحضر لها كوبا من الماء.

تناولت المرأة الماء بيد مرتجفة، حتى إن بعضه انسكب على ثيابها، إلا أنها حتى لم تشعر بهذا، وهي تواصل:

- دخل حجرة الجن، وأغلقها خلفه، وصرخ فينا من داخلها، أن كل شيء على ما يرام، وأنه أثبت لنا أنها خرافات، ثم سمعنا صوت الجدار ينشق، وسمعناه يصرخ بكل الرعب، و..

أكمل في عصبية:

- واختفى.

شهقت العجوز، وتعالى بكاؤها، في حين راح الشيخ يبسمل ويحوقل، فتابع (شهير)، في عصبية غلب عليها الغضب:

- والمفترض أن نصدق هذا؟!

أجابته المرأة:

- لم تصدقوه في المرة السابقة، ثم..

قاطعها في حدة:

- ثم حفظنا التحقيق؛ لأننا لم نتوصل إلى أي شيء، ولكن أن يتكرر الموقف نفسه، قبل مرور عامين، ويختفي في منزلكم قريب آخر، فهذا أمر لا يمكن السكوت عليه.

قالت المرأة مدافعة:

- ألا تؤمن بالجن؟!.. جدي رحمه الله كان يقوم بتحضير الجان، في هذه الحجرة، ولقد أوصى بأن نبقيها مغلقة بعد وفاته؛ لأن بها ذلك الممر، الذي يربط عالمنا بعالم الجان.

صرخ فيها:

- هذه الخزعبلات لا تصلح لتحقيق رسمي.

ثم مال عليها في شراسة وعصبية:

- أين ذهب قريبكم هذه المرة؟!

تراجعت في خوف، مغمغمة بصوت مضطرب:

- الله سبحانه وتعالى وحده أعلم.

اعتدل قائلا في حدة:

- والوسائل الحديثة ستعلم أيضا.

ثم التفت إلى الضابط، متسائلا في غلظة:

- هل قمتم بفحص تلك الحجرة؟!

بدا الضابط شديد التوتر، وهو يجيب:

- انتظرنا حضورك يا سيادة المفتش.

رمقه (شهير) بنظرة غاضبة، واتجه نحو تلك الحجرة، قائلًا في حدة:

- بل قل: إنكم خشيتم دخولها.

خفض الضابط عينيه، وكأنه يعترف بصحة ما قاله (شهير)، الذي توقف لحظات أمام باب الحجرة، يتأمل مدخلها في توتر..

لم يكن بابا عاديا، كأبواب كل الحجرات..

كان بابا عجيبا، لا مثيل له..

باب، له ثلثا ارتفاع الأبواب العادية، ذو قمة قوسية الشكل، ومصنوع من الحديد، مثل أبواب القلاع القديمة..

وفي أعماقه، نبتت لحظات من الخوف والتردد، ولكنه خشي أن ينتقل هذا الشعور إلى الضابط وجنوده، فافتعل الصرامة، وهو يقول في حدة:

- هل تعرفون بما أشعر؟!.. أشعر بأننا أمام حالة جديدة، تشبه حالة (ريا) و(سكينة) القديمة.. تقتلون ضحاياكم، وتدفنونهم في هذه الحجرة، ثم تدعون اختفاءهم!!

غمغمت المرأة، وهو يوليها ظهره:

- ليس بالحجرة مكان، يمكنك أن تدفن فيه صرصارا.

أجاب في صرامة، بذل كل جهده لافتعالها:

- سنرى.

استجمع شجاعته، ودفع الباب المعدني القصير، ثم انحنى ليعبره إلى تلك الحجرة..

لم تكن أول مرة يراها، وعلى الرغم من هذا، فقد ارتجف شيء ما في أعماقه لدى رؤيتها، في هذه المرة أيضا..

كانت حجرة صغيرة، لا تزيد مساحتها عن أربعة أمتار، ليست بها أية فتحات، سوى هذا الباب المعدني..

وعبر المصباح الضوئي الكبير، الذي أحضره خصيصًا وراح يفحص جدرانها وسقفها وأرضيتها..

الحجرة كانت خالية من الأثاث تماما أيضا، وكل شبر فيها مغطى بكتابات عجيبة، ليس لها أي معنى..

الجدران، والسقف.. وحتى الأرضية..

كتابات بعضها بالعربية، وبعضها بالأوردو، لغة سكان بلدان (آسيا)، والبعض الآخر مجرد رموز، لا يمكن فهمها..

وكانت المرأة على حق فيما قالت..

فلو حفرت، ولو حفرة صغيرة، ستفسد حتما جزءا من تلك الرموز، التي تبدو كلها سليمة متوازنة..

ولكن أكثر ما أثار حيرته، في المرة السابقة، وضاعف منها في هذه المرة أيضا، هو أرضية الحجرة..

لم يدر، ولم يتمكن الخبراء من معرفة، من أية مادة صنعت!!..

فهي مصنوعة من قطعة واحدة، من مادة تشبه الرخام في مظهرها، والخشب في ملمسها، ولكن لها صلابة سبيكة من التيتانيوم، غير القابل للكسر..

ولوهلة، كاد يصدق ما ذكرته المرأة، ثم لم يلبث أن هز رأسه في

قوة، وهو يهتف في حدة:

- كيف يمكن أن يختفي شخص في حجرة كهذه، ليس لها من مخرج؟!

رفعت المرأة صوتها المرتجف، وهي تجيب:

- الجدار ينشق، ويخرج منه الجان، و..

قاطعها في غضب:

- أريد جوابا منطقيا.

مسحت دموعها، وهي تجيب في انكسار:

- هذا هو جوابي الوحيد.

عاد يفحص الجدران، على ضوء مصباحه القوى، وهو يقول في عصبية:

- وهل يحضر الجان مقاوليهم بعدها لإصلاح الشق؟!

كان أول مرة يسمع فيها صوت ذلك الشيخ، وهو يقول:

- حذار أن تسخر من هذا.

اندفع خارج الحجرة؛ ليصرخ فيه:

- إذن فأنت تستطيع التحدث!

بدا الشيخ صارما قويا، على الرغم من عمره، وهو يقول:

- العالم كله ليس كما تراه يا هذا.. نحن لا نحيا وحدنا.. ربما أغشت الحضارة عيون البعض، وغرتهم التكنولوجيا، فنسوا أن سيدنا (سليمان) سخر الجن، وكان مجلس ملكه يضم بعضهم.

زمجر (شهير)، وهو يقول:

- سيدنا (سليمان) كان نبيا.

أجابه الشيخ في تحدٍ:

- هذا لا ينفي وجود الجان.

اعتدل (شهير)، يتطلع إليه لحظات في غضب، قبل أن يقول في حدة:

- لست أنفي وجود الجان، ولكنني أنفى أن يكونوا سبب اختفاء الأشخاص في منزلكم.

أشارت العجوز إلى الحجرة، قائلة في ارتجاف مذعور:

- ما كان ينبغي أن يدخلوا هذه الحجرة.

هتف، ملوحا بذراعه كلها:

- لقد كنت داخلها، ولم يحدث شيء.

ازدردت المرأة لعابها، قائلة في خفوت:

- كان الباب مفتوحا.

وأضاف الشيخ:

- الجان لا يظهر، إلا بعد أن تصير الحجرة مغلقة.

شعر وكأن ثلاثتهم يتحدونه، فقال في صرامة عصبية:

- وما المانع؟

اندفع مرة أخرى نحو الحجرة، فهتف به الضابط في هلع:

- سيادة المفتش.

أشار إليه في صرامة:

- لا تقل لي إنك قد صدقت ما يقولونه أيها الضابط.. سأثبت لهم ولك، الآن أن كل هذا مجرد هراء وخرافات.

دخل إلى الحجرة في حدة، وأشعل مصباحه الضوئي القوى، وهو يقول بكل عصبية:

- سنرى الآن من منا على حق.

قالها، وأغلق الباب المعدني في قوة، والمرأة تصرخ:

- لا تجازف.

وما ان أغلق الباب، الذي أصدر صوتا قويا، حتى تلاشت شجاعته، وذهبت عصبيته، وبدا الخوف واضحا في نبراته، وهو يهتف:

- ها أنذا داخل الحجرة المغلقة، ولم يحدث شيء.

تردد صوته داخل الحجرة الخالية، على نحو أثار الفزع في نفسه، على الرغم من ضوء المصباح القوى، فجذب الباب المعدني ليخرج، مكتفيا باللحظة التي قضاها فيها، و..

وفجأة، سمع تلك القرقعة العجيبة من خلفه، فاستدار بضوء مصباحه في سرعة، وانطلقت من حلقه صرخة رعب، بلغت مسامع من بالخارج، فوثب الضابط يدفع الباب المعدني، وهو يصرخ:

- سيادة المفتش.

ثم توقف ذاهلا مذعورا..

فقد كانت الحجرة الصغيرة خالية..

تماما..

. وفي ظفر عجيب، تمتم الشيخ:

- من المؤسف أنه لم يصدق..

انتفض (شهير) في قوة، وهو يدير مصباحه القوى في الحجرة، وتساءل في عصبية: لماذا أطلق تلك الصرخة؟!..

كل ما رآه، هو تلك الجدران العجيبة تدور من حوله، وتلك النقوش والرموز الغريبة، وكأنها تطير في سماء الحجرة..

ثم انتهى كل شيء، في ثانية واحدة..

لم يدر ماذا حدث بالضبط، إلا أنه أمسك مقبض الباب المعدني، وجذبه، فانفتح الباب معه في يسر..

ولكن المشهد الذي وجده أمامه كان يختلف عما تركه خلفه تماما..

لم يعد هناك ضابط أو جنود..

ولم يعد البيت نفسه قديما متهالكا..

ولكن الشيخ والعجوز والمرأة كانوا هناك.

الفارق أن الشيخ لم يعد ضعيفا واهنا، والعجوز كانت تبتسم في ظفر، أما المرأة، فقد بدت له ابتسامتها مخيفة، وبدا له جمالها عجيبا..

وفي بطء وهدوء، اقترب منه الشيخ، ومال نحوه، قائلًا:

- هل تؤمن بالجان الآن؟!

ارتجف (شهير) بكل العنف، وهو يحدق في العينين، اللتين تشتعلان كجمرتين من لهب، في حين ارتفعت العجوز عن الأرض، وأطلقت ضحكة مخيفة، وهي تقول للمرأة:.

- أعدى القدور.. لقد وصل الطعام.

أجابتها المرأة، وعيناها تشتعلان بوهج رهيب، وهي تمسك سيفا من نار..

كل شيء مُعَّد..

وصرخ (شهير) بكل الرعب، في حين بدا الشيخ مفعما بالحيوية والنشاط، وهو يقهقه بصوت مرتفع، امتزج بصرخات (شهير)، وإن ضاعت صرخاته وسط تلك القهقهة العالية، ذات السمة الخاصة..

قهقهة جني..

انتصر..

☆ ☆ ☆ ☆

اجتماع..

لم أدر لماذا اجتمع هؤلاء الناس هذه المرة!!..

في حياتي كلها، لم أرهم يجتمعون معا، على أمر واحد...

زوجتي، التي أذاقتني العذاب والمرار طيلة حياتي..

وعمتي الجشعة، التي لم تتصل بي يوما، إلا من أجل المال..

وعمي، الذي استولى على أرض والدي، منذ كنا أطفالًا، ولم يمنحنا منها قرشا واحدا طيلة عمرنا..

وحماتي، تلك العقربة الحيزبون، التي لم يكن لها من هم، سوى إفساد حياتي، ولعب دور الشيطان، الذي يوسوس لزوجتي، بكل ما يمكن أن ينغص على أيامي..

الأربعة كرهتهم طيلة عمري..

وهم أيضا كرهوا بعضهم البعض..

ومن العجيب أن يجتمعوا اليوم، حول مائدة واحدة..

ولكن من هذا الخامس؟!...

لم أره في حياتي يوما..

أهو صديق حماتي؟!..

أم محامي عمى؟!..

لست أدرى...

ولكن لماذا التساؤل؟!.. إنهم لم يشعروا بعد بوجودي، ويمكنني أن أستمع إلى أحاديثهم، وأطلع على نواياهم..

إنها فرصة نادرة بحق..

"إنه يخفى نقوده في مكان ما حتما.. "

قالتها حماتي في غل واضح، وهي تعقد حاجبيها؛ لتصبح أكثر شبها بالشيطان، فهر عمى رأسه، وقال في غلظة:

- لن يقل المبلغ عن خمسة ملايين جنيه.

مطلت عمتي شفتيها، وقالت في ازدراء، وكأنها توزعه على الجميع بعدل:

- إنه بخيل شحيح طيلة عمره.

علقت زوجتي في ازدراء، ورثته عن أمها:

- هل ستخبرينني؟!

يا لها من جاحدة كذوب!!..

أنا لست بخيلا، ولم أكن يوما من البخلاء..

لقد ربحت الكثير، وأنفقت الكثير أيضا..

ولكن هذه المرأة لا تشبع أبدا..

إذا ابتعت لها ثوبا، طلبت خمسة، وإذا ما اشتريت شقة في مدينة صيفية، طالبت بفيلا، وهكذا..

وكوني أربح الكثير، لا يعني أن أهدر المال على هذا النحو..

ثم إنني لم أبخل عليها يوما!!..

وعلبة مجوهراتها تشهد بهذا..

أطقم من الذهب..

عقود وأساور من الماس..

حلى من اللؤلؤ الطبيعي..

زمرد..

ياقوت..

مرجان..

هل ينبغي الآن أن أقلد (على بابا)، وأهتف: "رحمتك يا رب"؟!..

إنها امرأة شرسة، لا تشبع أبدا..

"السؤال هو: كيف أخفى مبلغا كهذا؟!.. وأين؟!".

نطق عمى العبارة، بعد أن تنحنح، وبصق في منديله الحريري، ثم مسح شفتيه بنفس المنديل، مضيفا:

لقد راجعت كل حساباته في البنوك، ومجموع ما فيها لا يتجاوز عشرة آلاف جنيه.

غمغم ذلك الخامس، وهو يرص أوراقا عجيبة على المائدة:

- سنعرف بعد قليل.

تساءلت عمتي، في خفوت حذر قلق:

- أأنت واثق من امتلاكه لخمسة ملايين جنيه على الأقل؟!

أجابها في غلظة حادة:

- تمام الثقة.. لقد باع كل ممتلكاته، وهي تساوي ما يفوق هذا.

هتفت حماتي في غضب، موجهه حديثها إلى ابنتها:

- أرأيت أيتها الحمقاء.. ألف مرة طلبت منك أن تجبريه على أجابتها زوجتي، في غضب مماثل:

- وألف مرة أخبرتك أن أحدا لا يستطيع إجباره.

صاحت بها، وقد ازداد غضبها اشتعالا:

- كتابة بعض ممتلكاته باسمك.

- الزوجة لا تعجز أبدا.. قليل من الدلال، كان يمكن أن..

قاطعتها زوجتي في حدة:

- ولا حتى الكثير منه.

دلال؟!..

ومن زوجتي؟!..

إنني، ومنذ نكبني الله بالزواج منها، لم أر لمحة واحدة من الدلال..

كل ما رأيته هو صلف، وغرور، وغطرسة، وتعال..

ولولا أن ديانتنا لا تبيح الطلاق، لما بقيت زوجا لها أسبوعا واحدا..

حتى في شهر العسل، لم نتبادل سوى القليل من الحديث..

وأول شجار بيننا، حدث بعد زواجنا بأسبوع واحد..

أرادت أن تسافر إلى (أوروبا)، وأخبرتها بأنني قد بدأت مشروعا جديدا، وأحتاج إلى كل قرش..

وثارت ثائرتها..

وعبر لسانها، الذي تمنيت دوما قطعه، نعتتني بأفظع الألفاظ، ورمتني بأسوأ أنواع السباب..

ووصفتني، كما ظلت تصفني دوما، بأنني بخيل..

وعقب الشجار مباشرة، أجرت اتصالا بالحيزبون الكبيرة، التي استقلت الطائرة، وهبطت علينا في (شرم الشيخ) كنيزك مدمر، وواصلت حفل (الردح)، حتى كدت ألقى نفسي من شرفة الفندق..

وسافرنا إلى (أوروبا)..

ولم يتم مشروعي بالطبع..

فكل قرش ادخرته، ضاع في مشتريات الهائم، التي سافرت بحقيبتي سفر، وعادت بست حقائب..

حتى الحقائب، أصرت على شرائها من أغلى الأصناف..

ومنذ ذلك الحين، تعلمت أن أخفى عنها دخلي..

وزادت هي من عصبيتها وصلفها..

ولكن مشكلتي كانت أن والدها، الذي لا يهش ولا ينش، كان يعمل في وظيفة كبيرة، في البنك المركزي، ويمكنه الاطلاع على كافة حساباتي في البنوك..

ولهذا كانت الخزانة السرية ضرورة..

ولكن حتى هذه، يمكن أن يكشفوا موضعها، ببعض البحث والجهد...

وهم لن يدخروا وسعا لهذا..

ولكن المفاجأة قد تصيبهم بالشلل..

وكم سيمتعني أن يصابوا كلهم به..

فالخزانة السرية، ليس بها قرش واحد..

ومهما فعلوا، لن يعلموا أبدا أين ذهبت النقود، التي حصلت عليها من بيع ممتلكاتي..

من المستحيل أن يعلموا..

كدت أنفجر ضحكا، وأنا أتصورهم يعثرون على الخزانة، ويفرحون، ثم يجدونها خالية.. وأنا لم أدخر وسعا؛ لكي أصيبهم بهذا..

اللوحة التي تخفي الخزانة، تركتها غير ثابتة..

وقفل الخزانة، جعلته بلا أرقام سرية..

يكفي أن تجذب مقبضها، فتفتح في يسر وسهولة..

ثم تأتى المفاجأة..

ويا له من موقف!..

"سأعثر على تلك النقود، حتى ولو هدمت جدران هذا البيت، جدارا بعد آخر..

قالها عمي في غلظة وحدة، فعادت عمتي تتساءل:

أيمكن أن يكون قد أنفقها؟!

هتف عمي:

- فيم؟!

قالت زوجتي في قلق:

- في شراء عقار مثلا.

بدا وكأن الجواب قد صدمه قليلا، قبل أن يغمغم في توتر:

- حتى العقار له ثمن.

تنحنح ذلك الخامس، وقال، محاولا السيطرة على ضيقه:

- لماذا العجلة؟!.. لماذا لا تنتظرون حضوره؟!

تساءلت حماتي في قلق:

- أأنت واثق من حضوره؟!

تردد لحظة، ثم أجاب في حزم:

- إلى حد كبير.

بدا القلق والشك على وجوههم جميعا، قبل أن تتساءل زوجتي في حذر

- وهل تعتقد أنه سيخبرنا بمكان النقود؟!

أجابها في حزم صارم:

- لن يمكنه أن يكذب.

أه.. أنا أعرف هذا الأسلوب جيدا...

هذا الرجل محام، يحاول إقناع موكليه بأن قضاياه لا تخسر أبدا..

كل المحامين يفعلون هذا..

حتى ولو كانوا واثقين من أن قضاياهم خاسرة حتما..

ففي كل الأحوال، في المكسب أو الخسارة، سيحصلون على أجرهم..

"ولكننا اتفقنا على النسبة.. أليس كذلك؟ ..."

يا للمحامين!!.. دوما من الطماعين!..

"خمسة في المائة، كما اتفقنا.."

أجابه عمى بغلظته المعهودة، فهز رأسه، وقال في خفوت، يقطر بالطمع والجشع والنهم:

خمسة في المائة، من مبلغ كهذا، مقابل معقول جدا.

قالت حماتي في صرامة:

- المهم أن يخبرنا

أجابها بكل الثقة:

- سيكون مضطرا لهذا.

مضطر؟!.. ماذا يدبرون لي بالضبط؟!..

ولماذا هو واثق هكذا من أنني سأحضر اجتماعهم؟!..

إنني أرفض حتى أن أجلس معهم على مائدة واحدة..

ثم أين يتوقعون أن أجلس؟!..

إنهم، بمقاعدهم الخمسة، يحيطون بالمائدة الصغيرة المستديرة تماما!!..

وما داموا لم يشعروا بعد بوجودي، فسأخذلهم، وأحطم ثقة هذا المحامي المغرور، وأنصرف..

خفتت الأضواء فجأة، إلا من مصباح صغير، وسمعت ذلك المحامي يقول:

- فلتتشابك أيدينا.

لم أفهم ما يفعلونه، وقررت أن أسارع بالانصراف، ولكن ذلك المحامي بدأ في ترديد كلمات عجيبة، وهم يشبكون أيديهم ببعضهم البعض..

وعلى الرغم من رغبتي العارمة في الانصراف، وجدت نفسي أنجذب إلى اجتماعهم، كما لو أن هناك قوة عجيبة تجبرني على هذا..

ولأول مرة، أفهم ما يقوله هذا الرجل:

- احضري يا روح المرحوم (تادرس وجيه).

لماذا يجبرني على الانضمام إليهم، بعد أن تحررت أخيرا منهم ومن همومهم؟!

لقد سعدت بالموت؛ لأنه أبعدني عنهم، وها هو ذا يجبرني على الانضمام إليهم مرة أخرى..

وعلى الرغم منى، حلقت روحي فوق منتصف تلك المائدة المستديرة، وسمعت ذلك الرجل، الذي كشفت أنه ليس محاميا، ولكنه واحد من مستحضري الأرواح، يسأل في عمق عجيب:

- أين أخفيت نقودك يا (تادرس)؟

أغاظني أن يجبرني على البوح بالسر، ويفسد علىّ متعة انتظار فتحهم للخزانة، وحاولت ألا أبوح به، ولكن القوة نفسها جعلتني أجيب:

- لم أخفِ أية نقود.

وانتظرت لحظة، ثم أضفت في شماتة، بدت لدى خروجها منى حديثا عاديا بسيطا: لقد تبرعت بها كلها للجمعيات الخيرية؛ حتى لا تحصل زوجتي على جنيه واحد بعد موتى.

سمعت صرخة عالية، أفسدت ذلك الاجتماع دفعة واحدة، وحررتني، لأنطلق مبتعدا عنهم..

ولكن بهجتي بالانتصار لم تفسد..

فتلك الصرخة أطلقتها حماتي، التي ما إن علمت بضياع كل شيء؛ حتى حققت ما كنت أنشده منذ البداية..

أصابها الشلل..

كم هو عظيم عالم الموتى.

☆ ☆ ☆ ☆

الخبير..

منذ اللحظة الأولى، التي وضعت فيها قدمي في مسرح الجريمة..

كنت أستطيع أن أصف كيف دارت الأمور فيه..

وبأدق التفاصيل..

القتيل الملقي في ركن الصالة..

السكين الذي تلوث الدماء نصله على الأقل...

الدم المتناثر على الجدار..

كوبا المشروب على المائدة..

راجعت كل هذا ببصري في سرعة، قبل حتى أن يستقبلني ضابط المباحث في ترحاب:

- دكتور (على).. يبدو أننا سنحتاجك مرة أخرى.

صافحته في هدوء، وأنا أقول:

- السكين لن يحوي أية بصمات..

أدهشته مبادرتي هذه، فغمغم مرتبكا:

- رجال المعمل الجنائي لم يبدأوا عملهم بعد.. لقد رأينا أنه من الأفضل استدعاء خبير مسرح الجريمة أولا.

قلت في ثقة:

- لن يجدوا شيئا.

بدا متحديا، وهو يسألني:

- وكيف يمكنك الجزم؟!

أشرت بيدي، مجيبا:

- عندما وصلت، لم يكن هناك أثر لكسر قفل الباب، أو ما يوحى بحالة اقتحام عنوة، وكوبا المشروب يدلان على أن القتيل قد استقبل قاتله بالترحاب، ودعاه إلى مشروب، مما يوحي بأنه لم يكن يتوقع منه شرا، ولقد قضيا سويا القليل من الوقت؛ بدليل أن المشروب في الكوبين ليس مكتملا، ولقد طلب القاتل شيئا ما من القتيل، وعندما نهض لإحضاره، نهض القاتل خلفه، وبالقرب من المطبخ شعر القتيل به خلفه، فالتفت إليه، وهنا باغته القاتل بضربة سريعة في عنقه بهذا السكين، فتناثرت دماؤه على هذا الجدار المجاور للمطبخ، وستجد بعض الدماء متناثرة في وضوح،

على أرضية المطبخ، مما يؤكد أن الجريمة قد تمت، على بعد خطوة واحدة منه، وعندما سقط القتيل، فرت القاتلة من المكان.

بدا ضابط المباحث مشدوها، وهو يهتف:

- قاتلة؟!.. وكيف يمكن أن تجزم بأنها قاتلة، وليست قاتلاً.

شعرت بالإشفاق عليه، وعلى المنظومة الأمنية، التي وضعته في موقعه هذا، وأنا اجيب:

- إننا أمام جريمة قتل، مع سبق الإصرار والترصد.. وعندما تستقبل في منزلك شخصا، يخطط لقتلك، سيثير دهشتك وشكوكك أن يأتيك مرتديا قفارا، أما لو كان القاتل امرأة، فسيبدو هذا كجزء من أناقة زيها فحسب.

قال الضابط متحديًا:

- وماذا لو عثرنا على بصمات؟!

تضاعف شعوري بالإشفاق عليه، وأنا أجيب:

- أتحداكم أن تفعلوا.. لقد تركت القاتلة سلاح الجريمة خلفها، ولم تحاول رفع أكواب الشراب، ولو أنها فعلت، لما بقي القليل من الشراب في كوبها.. انظر إلى الكوبين.

التفت الضابط إلى الكوبين في اهتمام، فتابعت:

- الكوب إلى اليسار، لم يتبق فيه إلا القليل من الشراب، وعليه ستجدون بصمات القتيل نفسه، أما ذلك إلى اليمين، فقد نقص ربعه فحسب، وهذه سمة من سمات نساء الطبقة الراقية.. أن ترتشف القليل، وببطء.. ولهذا لن تجدوا عليه أية بصمات.

ظهر الانبهار في وضوح على وجه الضابط، وهو يغمغم:

- لقد كنت على حق.

استدرت متجها إلى الباب، وأنا أقول:

- أخبرني عندما تظهر نتائج المعمل الجنائي، وحتى ذلك الحين، لا تضيع الكثير من الوقت، وابدأ في البحث عن امرأة من الطبقة الراقية، في أوائل الثلاثينيات من عمرها، تربطها بالقتيل علاقة طويلة، ولكنهما على خلاف منذ عام أو عامين.. ابحث، وأبلغني بالنتائج.

والتفت إليه، مضيفا بابتسامة باهتة:

- لأكمل أبحاثي.

غادرت المكان، وكلي ثقة في أنني تركته خلفي مشدوها مبهوتا، وارتسمت على شفتي ابتسامة كبيرة..

مساكين هم رجال الأمن هؤلاء...

درسوا كل شيء عن الجريمة والمجرمين، وطرق البحث والتحري، ونظم جمع الأدلة والقرائن، وكيفية التوصل إلى الحقائق..

ثم لم يستخدموا هذا أبدا..

فقط استخدموا القوة..

وعندما تقتصر كفاءتك على الشعور بالقوة، يندثر معها الفكر السليم، والعقل الراجح..

وهذه آفة كل ذوي السلطة..

وهذا ما يجعلني متفوقا عليهم دوما..

لقد تعلمت كيف أسبر أغوار مسرح الجريمة..

عبر الأدلة الصغيرة، المتناثرة فيه، أستطيع أن أسبح بخيالي، وأرسم صورة كاملة للجريمة، وبكل تفاصيلها..

ألقيت نظرة على ساعة يدي، التي أشارت إلى قرب موعدي مع أستاذي، الذي يشرف على رسالة الدكتوراة، التي أعدها منذ عامين، حول مسرح الجريمة، وزدت من سرعة سيارتي؛ حتى يمكنني الوصول إليه في الموعد، خاصة وأنه شديد الدقة، في مثل هذه الأمور..

ثم إنه لا يغفر التأخير عن الموعد..

أبدا..

ومن حسن الحظ أنني نجحت في الوصول في الموعد بالتحديد، واستقبلني أستاذي في حجرة مكتبه، وما إن جلست أمامه، حتى قال برصانته المعتادة، والتي تشوبها دوما نبرة صارمة خفية:

- لقد راجعت كل الحالات التي أوردتها في رسالتك، ومن الواضح أنك خبير حقيقي في مجالك.

غمغمت:

- حمدا لله.

مط شفتيه بلا مبرر، وراجع أوراق الرسالة في سرعة، وهو يقول:

- رسالتك حللت ثلاثين مسرحا مختلفا للجريمة، ورؤيتك، التي أوردتها في تقارير رسمية، اتفقت مع ما أسفرت عنه تحريات المباحث وجهود الشرطة: في تسعة وعشرين منها..

غمغمت في ارتياح:

- هذا صحيح..

أغلق الرسالة، وسألني في اهتمام:

- وماذا عن الثلاثين؟!

بدأت أشعر بالقلق، وأنا أسأله:

- ماذا عنها؟!

بدا شديد الاهتمام، وهو يسأل:

كيف فشلت في كشفها؟!

ازدردت لعابي في صعوبة، مجيبا:

- لم يكن هناك في مسرح الجريمة، ما يمكن أن يشير إلى هوية مرتكبها..

هز رأسه نفيا، وهو يقول:

- مستحيل.

ثم أردف برصانته الصارمة:

- الجريمة الكاملة أمر مستحيل، ولا يحدث حتى في أفلام السينما.. هناك حتما دليل ما، يتركه القاتل خلفه.. المشكلة فقط تكمن فيمن يراجعون الموقف من بعده.

غمغمت في توتر:

- في تلك الحالة، كان الأمر عسيرا بحق.. فالقتيل لقى مصرعه في شارع مظلم، وفي ليلة ممطرة، وتم خنقه بسلك رفيع، لم تكن عليه سوى آثار القتيل نفسه، ومياه الأمطار تكفلت بإفساد كل الأدلة من حوله.

وصمت لحظات، ثم أضفت:

- ثم إن مسرح الجريمة كان الشارع بأكمله، وبلا شهود عيان، فكيف يمكن كشف أمر كهذا، بعد ليلة عاصفة ممطرة.

قال في حزم:

- يمكنك أن تستدل بنوع السلك، وكيفية الحصول عليه.

هززت رأسي نفيًا:

- كان سلكا عاديا، يمكن الحصول عليه، من أي من محال الأدوات الكهربية.

تراجع في مقعده، ورمقني بنظرة طويلة، قبل أن يقول:

- ربما هي ليست مشكلتك، كخبير في مسرح الجريمة، ولكنها ستكون حتما مشكلة رجال الشرطة والبحث الجنائي، وإدارة الأدلة الجنائية.

عدت أهز رأسي نفيا مرة أخرى، وأقول:

- لم تكن مشكلتهم كذلك.

تساءل في اهتمام:

- ألم يجدوا شيئا.

هززت رأسي نفيا، دون أن أجيب، فتابع:

- كان عليهم أن يبحثوا عن الدوافع..

قلت في خفوت:

- لم تكن هناك أية دوافع.

بدا مستنكرا:

- لا يمكن أن تتم جريمة قتل بلا دافع واحد على الأقل.

قلت بنفس الخفوت:

- هنا تكمن المشكلة..

سألني في اهتمام:

- أية مشكلة؟!

اعتدلت في مجلسي، مجيبا:

- الرجل كان مجرد موظف بسيط، غير متزوج، وليس له أعداء، يمكن أن يسعوا لقتله، ولا أموال تغرى قاتلا بالتخلص منه..

لم يبد مقتنعا، وهو يقول:

- ربما هو قتل بدافع السرقة إذن.

أجبته في حزم:

- لقد تم استبعاد هذا تماما.

أطل التساؤل من عينيه، فتابعت:

- عندما عثروا عليه، كان يحمل حافظة نقوده، وبها ثلاثمائة جنيه، ويرتدى ساعته، وخاتما من الذهب، مما ينفي تماما السرقة لدافع للقتل.

أسعدني أن بدت الحيرة على وجهه، وهو يغمغم:

- لماذا إذن؟!

هززت رأسي مرة أخرى دون جواب، فتنهد في عمق، وتساءل:

- لماذا أوردت هذه الحالة في بحثك إذن؟!

أجبت في سرعة:

- للمصداقية.

ولأول مرة، رأيت ابتسامة ترتسم على شفتيه، وهو يغمغم:

- حقا؟..

ثم استعاد صرامته، مضيفا:

- في هذه الحالة، سأقبل بها ضمن أوراق البحث.

ابتسمت في ارتياح، فمال نحوي، مكملا:

- ولكن لو أردت رأيي الشخصي، فوجودها وسط بحثك، يفقدك سمة خبير مسرح الجريمة الأسطوري، الذي لا يفشل أبدا.

غممت في ثقة:

- أظن أن المصداقية أكثر أهمية يا أستاذي.

ابتسم ابتسامة حقيقية، قائلا:

- يمكنني أن أهنئك على نجاح بحثك مقدما.

انصرفت من مكتبه، وأنا أمتلئ بشعور كبير بالنشوة..

وبالشفقة على أستاذي..

وعلى كل رجال الأمن في (مصر)..

إنهم يتجاهلون دوما ما يسمى بالجريمة العشوائية..

الجريمة التي يتم فيها القتل.. لمجرد القتل..

وأستاذي المسكين يطالبني برفع هذه الحالة من بحثي؛ ربما لأنه لا يدرك أنها الدليل الأهم، على كوني خبيرا لا يشق له غبار، حتى ولو وقف الأمن كله على الطرف الآخر..

والدليل أنني قد انتصرت عليهم جميعا..

فالذي ارتكب تلك الجريمة الثلاثين، كان خبيرا بحق..

خبيرا اختار ضحية عشوائية، لا تربطه بها أية صلة، في ليلة عاصفة ممطرة، وشارع مظلم كبير، ودون أي دافع منطقي.

خبيرا ارتكب الجريمة الكاملة..

وتضاعف شعوري بالنشوة والظفر، وارتسمت على شفتي ابتسامة انتصار كبيرة..

هذا لأن ذلك الخبير، الذي هزم كل نظم الأمن هو...

أنا.

☆ ☆ ☆ ☆

المريض..

كان يوما مرهقا، بالنسبة للدكتور (أدهم)..

لقد فحص أكثر من خمسين مريضا بالمستشفى العام، الذي يرأس قسم الأمراض الباطنية فيه، وقضى ما يقرب من ساعتين، في عيادة التأمين الصحي، فحص خلالهما عددا لا بأس به من المرضى، مما التهم الوقت الذي خصصه لراحته اليومية، فاضطر إلى الذهاب مباشرة إلى عيادته الخاصة، التي اختار لها منطقة راقية، وأثثها بأثاث يليق باسمه، وزودها بأحدث المعدات والأجهزة الطبية..

وكم شعر بالإرهاق، فور وصوله إلى العيادة، مع رؤيته لذلك الزحام في صالتها، فأسرع إلى حجرة الكشف، واستدعى ممرض العيادة، وهتف به في حنق:

- ما هذا يا (رضا)؟ ألم أخبرك بأنني أعاود عشرين مريضا فقط يوميا؟!

أجابه الممرض في هدوء: '

- هذا عددهم بالضبط.. الباقون يرافقونهم فحسب.

أحنقه هذا، ولكنه، توفيرا للوقت، طلب منه إدخال المريض الأول على الفور..

وطوال ما يقرب من ثلاث ساعات، راح يعاود المرضى، ويفحص بعضهم، أو يتابع تحليلات وفحوص البعض الآخر، حتى بدا له أن يومه لن ينتهي أبدا..

وأخيرا، وبعد أن أحصي من عاودهم، أدرك أنه لم يتبق أمامه سوى مريض واحد، فتنفس الصعداء، وهتف عبر جهاز اتصال داخلي:

- المريض الأخير يا (رضا).

لم يجبه (رضا) هذه المرة، فهتف مكررا في حدة:

- المريض الأخير.

انفتح الباب فور هتافه، وعبره ثلاثة أشخاص..

رجل، وامرأة، وشاب في حوالي الخامسة والعشرين من عمره..

كان من الواضح أنهم أسرة واحدة؛ فملامحهم متشابهة إلى حد كبير..

ومن النظرة الأولى، أدرك أن الشاب هو مريضه الأخير..

كان نحيلا، شاحبا، زائغ النظرات، يطل المرض من كل لمحة في وجهه وجسده..

"اجلس، وأخبرني مما تعاني..."

جلس الشاب صامتا، وغمغم والده في هدوء:

- ليس قادرا على الكلام بعد.

بدت له العبارة عجيبة، فتساءل:

- ماذا تعني بكلمة (بعد) هذه؟!.. هل يعاني من تخلف ذهني؟

أجابته الأم في إشفاق:

- لم يكتمل نموه بعد.

تطلع مرة أخرى إلى الشاب، وغمغم:

- مازلت عاجزا عن الفهم.

تبادل الأب مع الأم نظرة صامتة، ثم قال:

الواقع أننا نعاني كلنا من حالة نادرة ما..

تراجع في مقعده، يسأله:

- أية حالة هذه؟!

أجاب الأب في بطء:

لا ينمو على نحو طبيعي.

كان الأب والأم يبدوان طبيعيين للغاية، مما جعل الأمر يبدو غريبا، فتراجع الدكتور (أدهم) في مقعده أكثر، متسائلا:

- هل لي بمزيد من التوضيح؟!

تبادل الأب والأم نظرة صامتة أخرى، في حين بدا الشاب شاردا، وكأنما الأمر لا يعنيه، وقالت الأم هذه المرة:

- حالتنا تختلف عنكم.. إننا نولد على نحو أفضل، ولكننا لا نستطيع أن ننمو، في غياب من حولنا.

ابتسم، أو أنه حاول أن يبتسم، وهو يقول:

- لم أقرأ في حياتي كلها عن أمر يشبه هذا.

أجاب الأب في سرعة:

- لم يتم تشخيصه بعد.

خيل إليه أنه يواجه مجموعة من البلهاء، فارتأى عدم الخوض معهم في مناقشة طويلة، وأشار إلى الشاب، قائلًا:

- هل يمكنك أن ترتقي منضدة الكشف؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابا، على نحو يؤكد قدرته على الفهم والاستيعاب، وما إن استلقى الشاب على الفراش، حتى اتجه نحوه لفحصه، وهو يقول:

- لو أمكنك فهم ما أقول، أومئ برأسك فحسب.

أومأ الشاب برأسه، وبدت عيناه وكأنهما تفحصان وجهه في إمعان، فربت عليه، محاولا أن يبتسم، ثم بدأ يلف جهاز قياس ضغط الدم على ذراعه، وهو يمسك معصمه؛ لقياس نبضاته..

وانعقد حاجباه في شدة..

فنبضات الشاب كانت مرتفعة إلى حد كبير، يدخل في زمرة الحالات المرضية، إذ تجاوز، وفقا لقياس أصابع يد الدكتور (أدهم) الخبيرة، ما يزيد عن ستمائة نبضة في الدقيقة الواحدة، مقارنة بمعدلات النبض الطبيعية، التي لا تزيد عن مائة نبضة في الدقيقة الواحدة!!..

أما قياس ضغط الدم في ذراعه، فقد كان أكثر مدعاة للدهشة..

كان منخفضا إلى حد لا يصلح معه أن يبقى على قيد الحياة..

وبكل دهشته وتوتره، غمغم الدكتور (أدهم):

- هذا الشاب يعاني بشدة.

غمغمت الأم، وهي تراقبهما في اهتمام وانتباه:

- كانت حالته أسوأ، قبل دخوله إليك.

وضع الدكتور (أدهم) مسماعيّ سماعته الطبية على أذنيه، ووضع بوقها على صدر الشاب؛ ليستمع إلى دقات قلبه.

ولن نبالغ لو قلنا إنه قد أصابه الفزع..

فتلك النبضات العجيبة، لم يسمع مثلها من قبل قط..

لم تكن تسير على الإيقاع الطبيعي لنبضات القلب..

ليس عند الأصحاء أو المرضى..

بل وليس حتى عند البشر..

"الشاب يحتاج إلى فحص شامل.."

قالها في توتر، وهو ينتزع جهاز قياس ضغط الدم، من حول ذراع الشاب، ولكنه فوجئ بالشاب يقبض على معصمه، ويومئ برأسه في قوة..

وعلى الرغم من الضعف والوهن، البادِيين عليه، فقد كانت أصابعه الرفيعة قوية، حتى لقد بدت ككلابة من الحديد، تقبض على معصم الطبيب، وتمنعه من الإفلات..

ومع كل ما عاناه، شعر الدكتور (أدهم) بدوار خفيف، وهو يحاول انتزاع معصمه من قبضة الشاب، الذي تشبث به في قوة، فقال الأب في صرامة:

- ليس مرة واحدة.

لم يكد يقولها، حتى أفلت الشاب معصم الطبيب على الفور..

ولسبب ما، تضاعف شعور الدكتور (أدهم) بالدوار، فتماسك في صعوبة، وهو يعود إلى مكتبه، وغمغم:

- يمكنك القدوم.

بدا الشاب أكثر حيوية، مما كان، وهو يغادر منضدة الكشف، ويعود للجلوس على المقعد المقابل لمكتب الطبيب..

وبابتسامة كبيرة، ربتت الأم على كتفه، مغمغمة:

- كل شيء سيصبح أفضل.

أومأ الشاب برأسه، وبدت على شفتيه ابتسامة شاحبة لأول مرة، فغمغم الدكتور (أدهم)، وشعوره بالضعف والدوار يتزايد:

- سأرسلك لعمل بعض الفحوص الطبية الضرورية، فلم أعهد مثل حالتك هذه من قبل.

كتب قائمة طويلة، بكم ضخم من الفحوص والتحاليل، فغمغم الأب وهو يتابعه:

- هل توصي بمعمل بعينه؟!

حاول الدكتور (أدهم) أن يقاوم ذلك الضعف، الذي يتزايد داخله، وهو يجيب:

- معمل الدكتورة (سناء)، في الشقة المجاورة.. أظنه مازال يعمل، حتى هذه الساعة.

غمغم الأب، بابتسامة باهتة:

- إنها زوجتك.. أليس كذلك؟!

رفع الدكتور (أدهم) عينيه إليه، وتطلع إلى وجهه وابتسامته لحظة، قبل أن يجيب، في عصبية واضحة:

- نعم.. إنها زوجتي... هل يصنع هذا فارقا؟!

هزت الأم رأسها، مغمغمة:

- ليس بالنسبة لنا.

في حين قال الأب في هدوء:

- كنت فقط أتساءل: لماذا يوصى بعض الأطباء بمعامل تمتلكها زوجاتهم؟!.. ألا يبدو هذا مجافيا بعض الشيء؟

أكمل الدكتور (أدهم) القائمة، وهو يقول في عصبية:

- ولماذا؟!.. إنه معمل أثق في نتائجه على الأقل..

قال الأب، ولهجته تشوبها بعض السخرية:

- وأرباحه تعود إلى الأسرة في كل الأحوال.

كظم الدكتور (أدهم) غيظه، وأشاح بوجهه عن ابتسامة الأب المقيتة، وراح يكمل تلك القائمة الطويلة من الفحوص والتحاليل، وإن اعترف في أعماقه بأن الرجل على حق، في جزء مما يقول..

إنها مسألة أرباح بالفعل..

ربما لهذا فإن نصف القائمة التي يكتبها الآن، تحوي فحوص وتحاليل لا قيمة أو أهمية لها..

ولا تتناسب حتى مع حالة المريض..

ولكنها حالة لم يعهدها من قبل..

وثياب هؤلاء توحي بأنهم أثرياء بما يكفي، للإنفاق على معمل تحاليل كامل..

فلِم لا؟!..

ولكن شعوره المتزايد بالضعف، جعله يرغب في إنهاء هذا الأمر بسرعة، فمد يده بالورقات الثلاث، التي تحوي قائمة الفحوص والتحاليل، وهو يقول، في شيء من الحدة:

- يمكنك أن تجرى هذا في أي معمل تشاء.

كان يتوقع أن يلتقط الأب أو الأم الورقات الثلاث، ولكنه فوجئ بالشاب يقبض على معصمه مرة أخرى في قوة، ويتطلع إليه بعينين تلتمعان على نحو عجيب، فحاول جذب معصمه من تلك الأصابع الفولاذية، وهو يهتف:

- (رضا).. أين أنت؟!

شعر، مع الجزء الأخير من سؤاله، وكأن حيويته كلها تنساب منه، ورأى بعينين مجهدتين، ابتسامة كبيرة على شفتي الأم، في حين قال الأب:

- لن يستجيب ممرضك.

- لماذا لا تجيب يا (رضا)؟!

أجابته الام بابتسامة كبيرة:

- لأنه لم يعد قادرا على هذا..

ثم مالت إلى الأمام، مكملة:

- ألم أخبرك بأن ابننا كان أسوأ حالا قبل دخوله إليك؟!

لم يستوعب ما يعنيه هذا، ولكن قلبه امتلأ بخوف شديد، وهو يتهالك في ضعف متزايد، وحاول أن ينطق شيئا، ولكن لسانه عجز عن هذا، في حين فوجئ بالشاب، الذي تورد وجهه، يقول في حيوية:

- كنت على حق يا أبي... إنهم لا يستمعون.

تهالك الدكتور (أدهم) تماما، حتى إنه لم يعد يستطيع مقاومة ذلك الشاب، والأب يقول في ظفر:

- لقد أخبرناك بأننا لسنا مثل الآخرين، وأننا لا نستطيع أن نحيا بدون وجودهم، وأنت لم تستوعب حرفا واحدا مما قلنا..

مال عليه الشاب، الذي استعاد كل حيويته، وهو يكمل:

- وقلنا إننا لسنا مثلكم أيها البشر.. نحن كائنات طفيلية، لا يمكن أن تنمو أو نحيا، دون أن نمتص طاقة وحيوية الحياة من أجسادكم.. ولقد وقع اختيار والدي عليك؛ لأنك بدورك بشرى طفيلي.. لا ترحم بني جنسك، وتمتص حيويتهم بلا رحمة، من أجل أن تحيا في رغد.. أراهنك أن نصف ما كتبته لا يفيد بشيء، سوى في رفع إيرادات معمل زوجتك.

واتسعت ابتسامة الأم أكثر، وهي تضيف:

- ممرضك الأحمق اندهش، عندما طلبنا منه أن نكون آخر كشف في عيادتك، وامتزجت دهشته بالرعب، عندما امتص ابننا الحبيب رحيق الحيوية والحياة من جسده.. تماما كما يفعل بك الآن، وكما سيفعل بزوجتك بعد قليل.

واعتدل الأب، وهو يقول لابنه، الذي استعاد كل حيوية وطاقة كأي شاب في مثل عمره:

- كائن طفيلي، يمتص بشري طفيلي.. إنها العدالة، التي نمارسها منذ أكثر من عشرة آلاف عام هنا.

ولم يستمع الدكتور (أدهم) إلى الجزء الأخير من العبارة، فقد فَقَد كل حيوية جسده البشري..

إلى الأبد.

☆ ☆ ☆ ☆

ذلك الكوكب..

«لم يبق من الطاقم سواي..»

هكذا بدأ رائد الفضاء تسجيل يوميات تلك الرحلة الفضائية، التي كاد من طول زمنها ينسي كيف ومتى بدأت..

وفي صعوبة، ازدرد لعابه، وحك رأسه براحته في توتر عصبي، قبل أن يتابع:

- الرحلة بدأت وفقا للبرنامج الذي درسناه بالضبط.. انطلقنا وسط احتفال كبير، والكل يعلم أنه قد لا يرانا مرة أخرى، ليس لثقتهم في أننا لن نعود، ولكن لأن السفر عبر الفضاء، بهذه السرعات الفائقة، ينكمش معه الزمن، حتى إننا، إذا ما عدنا إلى كوكبنا، فستكون قرونا من الزمن قد مرت عليه، ولن نجد أحدا ممن نعرفهم، وربما لا نجد حتى احفادهم.. وربما لهذا اختاروا الطاقم كله من غير المتزوجين، وممن ليست لديهم عائلات تفتقدهم..

از درد لعابه مرة أخرى، وتطلع إلى تلك الساعة الكبيرة، التي تملأ فراغ مقطورة القيادة، ثم تابع في مرارة:

- وكلنا في الطاقم كنا نعلم هذه الحقيقة، وارتضينا القيام بالمهمة، ولكل منا أسبابه ودوافعه.. بالنسبة لي، كانت فكرة أن أعود بعد قرون عديدة، أمرا مثيرا إلى أقصى حد، فسأعود لأجد الكوكب وقد بلغ ذروة التقدم، وستكون عودتي حدثا تاريخيا، يجعل منى أعظم أبطال الكوكب كله.. وربما كان هذا حلمنا جميعا، قبل أن ندرك هول ما سنواجهه..

التقط نفسا عميقا؛ محاولا تهدئة أعصابه الثائرة، وأوقف تسجيل اليوميات مؤقتا؛ ليتراجع في مقعده، ويغلق عينيه الواسعتين، مسترجعا تلك الذكريات البغيضة..

كانت أول مرة، ينطلق فيها رواد فضاء، بهذه السرعة الفائقة، ولهذه المسافات الفضائية الشاسعة.

ولقد قضى علماء الكوكب ما يقرب من عامين؛ لدراسة تداعيات هذا..

افترضوا الأفضل..

والأسوأ..

ولكن كل هذا كان مجرد فرضيات علمية، لا يمكن إثباتها أو نفيها، إلا من خلال الرحلة نفسها..

وكما يقضى القانون، تم اطلاع الطاقم الرئيسي والطاقم الاحتياطي بكل الاحتمالات..

وفي صدق حازم، طلب قائد فريق العلماء من الكل أن ينسحبوا، إذا ما أرادوا، دون أية مؤاخذة..

ولم ينسحب سوى شخص واحد..

وهكذا بدأ العد التنازلي..

وانطلقت الرحلة..

في البداية، لم تكن هناك أية مشكلات..

كل شيء كان يسير على ما يرام..

الطاقم كان يتمتع بروح معنوية عالية، ويؤدى كل منهم دوره كما ينبغي..

ولكن مع العام الفضائي التالي، بدأت المشكلة..

الكل صار عصبيا متوترا، والجميع يتشاجرون على أهون سبب..

حتى الشجارات نفسها، راحت حدتها تتصاعد..

وتتصاعد..

وتتصاعد..

ثم بدأت أولى حالات التمرد..

أضخم أفراد الطاقم حجما، رفض فجأة تنفيذ الأوامر، أو أداء دوره المنوط به، وتشاجر مع كل من يطالبه بذلك..

في البداية كان شجارا يمكن حسمه..

وبعدها ازداد الشجار عنفا..

وفي مرحلة متقدمة، تحول الشجار إلى اشتباك بالأيدي، تحول فيه أضخم أفراد الطاقم إلى وحش كاسر..

انتفخت أوداجه..

واحمرت عيناه..

واحتقن وجهه..

وصار صوته أشبه بزمجرة وحشية..

وفي النهاية، حاول إفساد نظام الضغط والتهوية في المركبة، وتعطيل محركاتها..

ولما فشلت كل محاولات السيطرة عليه، لم يكن أمام قائد الطاقم إلا الانتقال إلى مرحلة الطوارئ القصوى..

وبلا تردد.. قتله..

أغمض عينيه أكثر، وهو يتذكر تلك اللحظة المؤلمة..

اللحظة التي أطلق فيها سلاحه، على رأس زميله..

لم يكن قد فعلها، أو حتى تخيل أن يفعلها من قبل..

وذلك الذي قتله، كان أحد أصدقائه..

بل أقرب أصدقائه إليه..

ولكنها مسئولية القائد..

ذلك الضخم كان يهدد حياة الطاقم كله..

ولم يكن هناك من سبيل سوى.. قتله..

ولذلك فعل..

بعدها، سادت حالة من الوجوم والكآبة داخل مركبة الفضاء، لم تنته، إلا عندما انتقلت الحالة إلى فرد آخر من الطاقم..

كان الكل قد خضع لفحص شامل، وبدأ في تناول بعض العقاقير المهدئة، وعلى الرغم من أن الفحص لم يسفر عن شيء، فقد أصيب فرد آخر من الطاقم بالحالة نفسها..

وتعرض للنهاية نفسها..

القتل..

وبيده هو..

الكل بعد الحادث الثاني صار عصبيا، متشككا، يتصور أن الآخرين يتربصون به..

ومر عام، ثم آخر، ثم عادت تلك الحالة للظهور..

وانتهت بالنتيجة نفسها..

وبيده أيضا..

تنهد في عمق، عندما بلغ هذه المنطقة، من ذكرياته، قبل أن يعاود تسجيل اليوميات:

- وسائل الفحص والتشخيص الآلية، لم تجد في برامجها دليلا واحدا، يسمح لها بتشخيص الحالة، لذا فقد أوردتها تحت بند (تطورات غير متوقعة)، وبدا لنا أن الأمر يتعلق بمشكلة فيزيائية، تنشأ عن السفر بسرعات خارقة للمألوف.. والآن، وبعد ستة أعوام تقريبا، من سفر بدا بلا نهاية، وسط فضاء أشبه بسواد مطبق، تلتمع فيه نجوم بعيدة، لم يعد باقيا من الطاقم سواي..

ألقي نظرة على الشاشات الهولوجرامية أمامه، ثم تابع في مرارة:

- وكلهم قتلتهم بيدي، وألقيت أجسادهم، أو قل جثثهم في الفضاء.

صمت لحظات؛ ليزدرد ألمه ومرارته، ثم قال:

- ولكن أخيرا تقترب المهمة من نهاية مرحلتها الأولى..

أخيرا رصدت المركبة كوكبا تحيا عليه مخلوقات عاقلة.. منذ قرون وفكرة وجود كائنات عاقلة خارج كوكبنا، تبدو أشبه بدرب من الخيال..

العلماء يؤكدون حتمية هذا؛ نظرا لاتساع الكون، ووجود ملايين، بل مليارات المجرات فيه، والعامة يستنكرون ويرفضون، ويطالبون بدليل حي على هذا.. ولذلك كانت هذه الرحلة.. مازلت أذكر كلمات أستاذي:

«لو أن الاحتمال هو واحد في كل عشرة مليارات، فستبقى لدينا عشرات الاحتمالات؛ لأن الكون يزخر بمليارات المجرات، وكل منها تحوي الآلاف من الأنظمة النجمية، التي تدور في فلكها كواكب، قد يحوي أحدها حياة عاقلة»..

واليوم.. اليوم فقط، وبعد ست سنوات فضائية، رصدت أجهزة المركبة وجود حياة عاقلة، والمركبة تتجه نحوها الآن..

راجع التقارير، التي تراصت على الشاشات الهولوجرامية، في اهتمام قلق، ازدرد بعده لعابه مرة أخرى، وعاد يسجل:

- العجيب أن هذا الكوكب، الذي رصدت أجهزة المركبة وجود الحياة العاقلة عليه، شديد الضخامة إلى حد لا يصدق، حتى إنه يفوق حجم كوكبنا بآلاف المرات.. كوكب هائل، لو جمعنا كل سكان الكوكب، لأمكنهم العيش عن سعة، في واحد على مليار من مساحته..

بدا قلقه مضاعفا، وهو يتابع:

- ولكنني أرصد مركبات متحركة سريعة، قد لا تشبه ما يوجد لدينا، ولكن من الواضح أنها تستخدم لأغراض النقل نفسها.. وهناك مركبات أخرى طائرة، عددها يقل عن الأولى، ولكنها تقطع الكوكب طوال الوقت.. من الواضح أنهم يشبهوننا إلى حد كبير.. وفيما عدا حجم كوكبهم الهائل، لقلت: إنهم نسخة مشابهة لنا.. السؤال الذي يقلقني هو: أهم عمالقة ككوكبهم؟!

لم يتلق جوابا لسؤاله بالطبع، فصمت لحظات، ثم أكمل:

- ووفقا لتقديراتي، فالمهمة قد تمت هنا، والمفترض أن تبدأ المركبة رحلة العودة، بعد تسجيل موقع هذا الكوكب العملاق، على الخريطة الكونية الشاملة..

بدأ في إدخال البيانات، في برنامج المركبة، حتى تبدأ رحلة عودتها، و..

ولكن المركبة لم تستجب..

لقد واصلت اقترابها من ذلك الكوكب العملاق أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

هذا أمر لم يحسب حسابه جيدا..

الكوكب العملاق، له جاذبية عملاقة أيضا..

جاذبية لا تملك المركبة فكاكا منها..

خاصة وأن برنامج العودة يعاني من خلل ما...

إنه يعيد حساباته المرة تلو الأخرى، ثم يشير إلى نقطة الصفر.

وجاذبية الكوكب تجذبه..

وسرعة سقوط المركبة تتزايد..

وتتزايد..

وتتزايد..

وها هي ذي ملامح ذلك الكوكب تتضح..

ومازال برنامج العودة يشير إلى الصفر..

وفي يأس النهاية، هتف مسجلا آخر يوميات الرحلة:

- من الواضح أنها رحلة بلا عودة.. ستسقط المركبة على هذا الكوكب الهائل العملاق.. لن أعود إلى الوطن قط.. هنا ستنتهي الرحلة.. لن يعلم أحد بما فعلنا.. الرحلة كانت بلا طائل..

بدأت نيران الاحتكاك بالغلاف الجوي للكوكب العملاق تحيط بالمركبة، وأطلق برنامج العودة أزيرا عميقا، مصرا على عبارة (النقطة صفر)، وراحت سرعة الهبوط تتزايد..

وملامح الكوكب تتضح..

وتتضح..

وتتضع..

واتسعت عينا رائد الفضاء عن آخرهما..

الآن فقط أدرك لماذا يصر برنامج العودة على الصفر!!..

الآن فقط أدرك لماذا اتضحت له ملامح هذا الكوكب..

ولكن كلمة الآن هذه استغرقت ثوان معدودة..

وبعدها ارتطمت المركبة برمال ذلك الكوكب العملاق..

وبمنتهى العنف..

"أمر عجيب للغاية!!...

نطقها أحد علماء الكوكب، وهو يشير إلى مركبة الفضاء، في حيرة كبيرة، قبل أن يضيف:

- هذه المركبة انطلقت بالفعل، منذ قرنين من الزمان، وكنا ننتظر عودتها بعد قرن آخر.

قال كبير العلماء، في تفكير عميق:

- هل تعتقد أنها دارت دورة كونية كاملة، وعادت من حيث بدأت؟!

هز العالم كتفيه، وقال:

- وكيف يمكننا الجزم؟!

تطلع كبير العلماء إلى مركبة الفضاء، قائلا:

- سيمضي وقت طويل، قبل أن نستطيع ابتكار ما يمكنه قراءة ما سجلته أجهزتها.

غمغم العالم:

- ولكن هذا الحجم!..

لم يكمل عبارته، فقال كبير العلماء:

- (أينشتين) استنتج هذا رياضيا، منذ عدة قرون.. الانطلاق

بسرعات فائقة لمسافات طويلة.. الحجم ينكمش، والكثافة تتزايد.

هز العالم رأسه، وغمغم:

- ولكن إلى هذا الحد؟!

ثم التقط مركبة الفضاء، التي لا يزيد حجمها عن حجم لعبة أطفال، مواصلا في حيرة:

- لقد انكمشت، حتى صارت في حجم كرة سلة.. ترى كيف تعاملت أمخاخ طاقمها، مع هذا الانكماش الرهيب في الحجم؟!

زفر كبير العلماء، وقال:

- سنعلم كل شيء، عندما نتمكن من صنع أجهزة، يمكنها قراءة هذه البيانات المنكمشة.. حقا إن نتائج السفر بسرعات تفوق سرعة الضوء أمر مدهش وعجيب للغاية!..

وكم كان على حق!.

☆ ☆ ☆ ☆

خيال..

ابتسامة كبيرة، ارتسمت على شفتي مخرج أفلام الخيال العلمي الشهير (نذير علوان)، وهو ينهض لمصافحة ذلك الصحفي الشاب، الذي بذل جهدا كبيرا، في إلحاح متواصل، حتى حظيَّ بموافقته، على إجراء حوار صحفي، لكبرى المجلات الفنية، في الوطن العربي كله..

وعلى عكس ما توقع، بدا الصحفي متوترا، يتطلع إليه بنظرة غامضة عجيبة، جعلته يقول، محاولا تهدئته:

- أهي محاورتك الصحفية الأولى؟!

هز الشاب رأسه نفيا، وأجاب في حذر:

- إنني أعمل في هذا المجال، منذ خمس سنوات.

حاول (نذير) أن يبتسم، وهو يشير بيده، قائلًا:

- عظيم.. دعنا نبدأ على الفور إذن، فوقتي شديد الضيق كما تعلم.

ازدرد الشاب لعابه، على نحو ملحوظ، وأخرج من جيبه جهازا صغيرا، في حجم سبابة اليد، ضغط أجد أزراره، وهو يسأل:

- سؤالي الأول يا سيد (نذير).. لماذا اخترت مجال الخيال العلمي بالتحديد؟!

هز (نذير) كتفيه، مجيبا:

- التحدي.. عالمنا العربي كان يخلو فن أفلامه تماما من هذا المجال، فقررت أن أقتحمه، وأثبت للجميع، أنه مجال يصلح للسينما العربية، كما صلح لعقود للسينما الغربية.

خيل إليه أن الصحفي الشاب لم ينتبه إلى إجابته جيدا، فمال نحوه، مضيفا في حزم:

- فأنا أعشق التحدي.

بدا الشاب منشغلا لحظة بجهازه الصغير، قبل أن يقول:

- فيلمك الأول كان مبهرا، في حين أن الفيلم الأخير بدا نمطيًا إلى حد كبير.

تراجع (نذير) في دهشة، مغمغما:

وكيف هذا؟!

أجابه الشاب، فيما يشبه التحدي:

- فكرة غزاة الفضاء، الذين يعيشون بيننا، ويشبهوننا جسديا، حتى ليصعب تمييزهم عنا.. ألم نر هذا في أفلام الخيال العلمي الأمريكية القديمة؟!

حاول (نذير) أن يبتسم، وهو يجيب:

- الفكرة ليست القضية، في أفلام السينما.. المهم المعالجة..

وأظن أنني قد عالجت الفكرة بأسلوب جديد ومبتكر.

غمغم الشاب، وهو أكثر انشغالا بجهازه الصغير:

- ولكنها مازالت فكرة مكررة.

التقط (نذير) نفسا عميقا، وتعلقت عيناه بذلك الجهاز الصغير، محاولا استشفاف وظيفته الفعلية، وهو يجيب:

- لا يوجد ما يسمى بالفكرة المكررة، ولكن هناك ما يعرف باسم المعالجة المكررة.. مئات الأفلام تحدثت عن كائنات عاقلة، تصل إلى الأرض، وتختفي وسط سكانها.. وكلها تحدثت عنهم، باعتبارهم كائنات بشعة، ذات سمات وحشية، وقدرات خارقة، ويسعون لغزو الأرض، ولكن في فيلمي الأخير، كانوا في نفس هيئة سكان الأرض، يمتلكون تكنولوجيا أكثر تفوقا، ولكن ليس قدرات جسدية غير عادية.. ولقد كان كل ما يستهدفونه هو العيش في سلام، بين سكان الأرض، وليس غزوهم.

لم يبد الاقتناع على الصحفي الشاب، وهو يسأل:

- لماذا أخفوا أنفسهم إذن؟!

أجابه في شيء من الحدة، وهو يواصل محاولة فهم وظيفة ذلك الجهاز الصغير، الذي لا يكف الشاب عن العبث به:

- لأن الناس هنا أعداء ما يجهلون، وما إن يدركوا أن هؤلاء ليسوا منهم، حتى يناصبوهم العداء، ومن يدري ماذا يمكن أن يحدث..

بدا وكأن الشاب قد انتهى من إعداد جهازه، فوضعه بجواره، على سطح المكتب، الذي يفصله عن (نذير)، وهو يسأل:

- ولماذا يعيشون بيننا من الأساس؟!

أشار (نذير) بيده، في فراغ صبر، وهو يجيب:

- لأن كوكبهم تعرض لكارثة، لم يعد العيش على سطحه يناسبهم بعدها.

تطلع إليه الشاب بضع لحظات، في إمعان شديد، ثم قال في بطء:

- أهذا كله من صميم الخيال، أم..

لم يتم سؤاله، فتطلع إليه (نذير) في دهشة، مجيبا:

أم ماذا؟ ... إنه بالطبع من صميم الخيال.

التقط الشاب نفسا عميقا، وقال، وهو يضغط زرا في جهازه:

- ألم يخطر ببالك قط، ان يكون كل هذا حقيقة؟!

بدا (نذير) كالمصدوم، وهو يحدق في وجه الشاب، وسقط في لحظات طويلة من الصمت، قبل أن يقول:

- حقيقة؟!

لوح الشاب بيده، قائلا:

- هذا يحدث أحيانا.

سأله (نذير) في حدة:

- ما الذي يحدث أحيانا؟!

أجاب في بطء، وشبح ابتسامة غامضة، يتراقص على ركن شفتيه:

- أن يصيب الخيال كبد الحقيقة، دون أن يدرك صاحبه حتى...

عاد (نذير) يحدق في وجه الشاب في دهشة بضع لحظات، قبل أن ينعقد حاجباه، ويقول في شيء من الحدة:

- وقتي أضيق من أن أجيب عن مثل هذه الترهات.

باغته الشاب، قائلا في حزم:

- ليست ترهات يا سيد (نذير).

كان (نذير) يهمّ بالنهوض وإنهاء المقابلة، عندما نطق الشاب عبارته الأخيرة، التي جعلته يعاود الجلوس، وهو يغمغم في توتر:

- ليست ماذا؟!

فتح الشاب حقيبة أوراقه الصغيرة، وأخرج منها بضع ورقات، وضعها أمام عيني (نذير)، وهو يقول بنفس الحزم:

- أمامك تقرير فرنسي، عن رجل في منتصف عمره، لقى مصرعه في حادث سير في (ليل)، وعندما قام الأطباء بفحص حمضه النووي؛ في محاولة لتحديد هويته؛ نظرا لخلو ثيابه من أية هوية، فوجئوا بأن جيناته تختلف عن جينات البشر العاديين.

غمغم (نذير):

- أذكر هذا جيدا.. لقد حدث منذ عشر سنوات، والأطباء قالوا: إنه من المحتمل أنه تعرض لإشعاع ما، قام بتحوير حمضه النووي.

ثم أشار بيده، مضيفا:

- وربما هذا ما أوحى إلى بفكرة فيلمي الأخير.

دفع إليه الصحفي الشاب ورقه أخرى، قائلا:

- وماذا عن هذا التقرير الذي صدر منذ خمسة عشر عاما حول جسم كبير تم رصده يتجه نحو الأرض، في سرعة منتظمة، ثم يهبط في غابات (البرازيل)، وعندما

خرجت بعثات، علمية وعسكرية، وفضائية؛ للبحث عنه، لم يكن له أدنى أثر؟

شعر (نذير) بالقلق، وهو يغمغم:

- لم أطالع هذا قط.

أشار الصحفي الشاب إلى ورقة ثالثة، قائلا، وهو يضغط زر جهازه مرة أخرى:

- وماذا عن هذا؟!.. إنه جزء من دراسة لعالم أمريكي، تشير إلى أن هناك مخلوقات فضائية، تعيش بيننا بالفعل، منذ ربع قرن تقريبا.

هز (نذير) كتفيه، قائلا:

- لم يقدم دليلا واحدا على نظريته هذه.

اعتدل الصحفي الشاب، وضغط زر جهازه للمرة الثالثة، وهو يقول في حزم:

- لقد بنى نظريته، على فحص حراري قام به، على نحو عشوائي، على عدد من الناس، في أماكن مختلفة من العالم، لاحظ فيه أن البعض لا تبعث أجسادهم مقدار الطاقة الحرارية، التي من المفترض أن يبعثها أي كائن حي.

غمغم (نذير):

- لم تبلغ دراستي هذا الحد.

مال الصحفي الشاب نحوه، وسأله في وضوح مباشر:

- سيد (نذير)... هل تؤمن بوجود كائنات عاقلة، في أماكن أخرى من هذا الكون.. أعنى كائنات تشبه البشر.. شكليا على الأقل؟!

صمت (نذير) لحظات، تأمل خلالها الشاب في إمعان، قبل أن يجيب في بطء:

- الكون شاسع، إلى حد لا يمكن تصوره، وتسبح فيه مليارات المجرات، وكل مجرة منها، تحوي ملايين من الأنظمة الشمسية والنجمية، وبعضها تدور حوله كواكب، في مساحة ومناخ الأرض، أو أكبر أو أقل منها.. وهذا يعني أنه لدينا مليارات ومليارات من الكواكب، ولقد قال أحد العلماء: لو أن احتمال وجود حياة عاقلة على كوكب آخر، هو واحد في المليار، فهذا يعني أنه لدينا ملايين الاحتمالات، ولو أن تشابه تلك الحياة مع شكل الحياة على كوكب الأرض، هو واحد في كل مائة مليار، فلدينا أكثر من عشرة آلاف احتمال لوجود تلك الكائنات الشبيهة.

تراجع الشاب، وهو يبتسم مغمغما:

- بالضبط.

قالها، وهو يهم بالضغط على زر جهازه الصغير مرة رابعة، فاندفعت يد (نذير) تمسك معصمه في قوة، وهو يسأله في حدة:

- ما هذا الجهاز بالضبط؟!

لم يحاول الصحفي الشاب التملص من قبضته، وهو يجيب:

- جهاز تسجيل رقمي.. لقد اعتدت تسجيل كل مقابلاتي.

بدا (نذير) صارما، وهو يقول:

- جهاز التسجيل لا يحتاج إلى الضغط على أزراره، كل حين وآخر.. ما هذا الجهاز بالضبط؟

في هذه المرة، جذب الشاب معصمه منه في قوة، وهو يقول في حدة:

- إنه يلتقط بعض الصور أيضا.

مد (نذير) يده؛ ليلتقط الجهاز الصغير، وهو يقول في غضب:

- أخبرتك أنه لا تصوير.

اختطف الصحفي الشاب جهازه الصغير في سرعة، قبل أن تصل إليه أصابع (نذير)، وهو يهب من مقعده، هاتفا:

- حديث صحفي بلا صور، لا يساوي شيئا.

كان يتوقع من (نذير) أن يهاجمه، ويختطف الجهاز من يده، إلا أن هذا الأخير لم يفعل، وإنما تراجع في مقعده، وهو يقول:

- كان ينبغي أن تحصل على إذني مسبقا.

غمغم الشاب:

- ربما أكون قد أخطأت، ولكن..

قاطعه (نذير) بإشارة من يده، وهو يقول:

- لا بأس.. أنت صحفي مجتهد، بذلت جهدا كبيرا؛ للفوز بكل ما حصلت عليه، وأنا أحترم هذا.

ثم مال إلى الأمام فجأة، مردفا في صرامة:

- ولكنك لم تخبرني عن السبب الحقيقي لهذه المقابلة.

ارتسمت ابتسامة على شفتي الشاب، وبدا وكأنه يصوب جهازه نحو (نذير)، وهو يجيب في حزم:

- المواجهة.

غمغم (نذير)، وهو يتطلع إلى الجهاز الصغير مباشرة:

- هذا ما توقعته.

مع نهاية كلماته، سطع شعاع أزرق باهت في المكان، وارتفعت عقبه صرخة ألم، أعقبها صوت سقوط جسد على الأرض في عنف..

ولثوان، خيم على المكان صمت رهيب..

صمت له رائحة الموت..

ثم امتدت يد باردة، تلتقط ذلك الجهاز الصغير، وتضغط أحد أزراره، قبل أن يرتفع صوت (نذير)، وهو يقول:

- كما توقعت.. إنه جهاز رصد حراري... لقد كشف الأمر كله.

ثم عاد إلى ما خلف مكتبه، وضغط كرة صغيرة أمامه، قائلا في صرامة:

- أريد فريق تنظيف، لإزالة جثة بشرية من هنا.. وأطلب عقد اجتماع عاجل، فمادام صحفي شاب، قد توصل إلى شيء من الحقيقة، فهذا يعني أن من تبقى من شعبنا في خطر.. لابد من تصفية عدة أهداف، وإعدام بعض التقارير؛ لنضمن استمرار بقاءنا هنا.. ولست في حاجة إلى أن أكرر: البشر لن يتقبلوا وجودنا بينهم في سهولة... خطة الغزو تتعرض للخطر.. انتبهوا.

ضغط الكرة مرة أخرى، وأغلق عينيه، واسترخي بجسده البارد..

للغاية.

☆ ☆ ☆ ☆

أليون..

«لماذا يفعلون بنا هذا؟!..»

صرخ (نظمي) بالعبارة في هلع، وهو يعدو إلى جوار زميله (فاضل)، فرارا من طلقات الليزر القاتلة، التي تتفجر حولهم في كل مكان..

لم يبد (فاضل) بنفس ذعره وهلعه، وهو يشير إلى مبنى جانبي، هاتفا:

- يمكننا أن نحتمى منهم هنا.

اندفع الاثنان إلى المبنى، الذي حوى عشرات من أجهزة الكمبيوتر الهولوجرافية الحديثة، وأغلق (فاضل) الباب خلفهما في إحكام، في حين راح (نظمي) يلهث في انفعال، في ركن القاعة الكبيرة، وهو يقول مرتجفا:

- لماذا يحاولون قتلنا؟!.. نحن صنعناهم لحمايتنا؟!

التقط (فاضل) نفسا عميقا، وهو يجيب:

- البشر أخطأوا، عندما صنعوا آلات تحميهم.. كان ينبغي أن يحموا أنفسهم بأنفسهم.

هز (نظمي) رأسه في عصبية، وهو يقول:

- لماذا؟!.. منذ عقود والبشر يعتمدون على الآلات في كل شيء.. لقد تم استخدام نظم الحماية الآلية، منذ أكثر من عقدين من الزمان، ولم يواجه البشر قط أمرا كهذا.

حاول (فاضل) أن يسترخي في مقعده، وهو يقول:

- والآلات أيضا لم تكن بهذه الكفاءة.

صمت لحظات، ثم اعتدل، متابعا في اهتمام:

- عندما تم صنع أول رجل أمن ألي، في أوائل أربعينيات القرن الحادي والعشرين، كان مجرد كتلة معدنية مسلحة، مبرمجة بعدد محدود من الأوامر والواجبات.

غمغم (نظمي):

- وكان كل شيء يسير على ما يرام.

وافقه (فاضل) بإيماءة من رأسه، قبل أن يتابع:

- وفي عام 2047م، ومع الجيل الثالث من رجال الأمن الآليين، حدث ذلك التطور الكبير، في جعل الآليين يبدون في هيئة بشرية تماما، مما صنع شعورا أفضل بالألفة، بين البشر والآليين.

غمغم (نظمي) في توتر:

- كان ينبغي أن يتوقف البشر عند هذا.

صمت (فاضل) لحظات، ثم هز رأسه، قائلا في هدوء، لا يمكن أن يتفق مع الموقف المتوتر:

- ولكنك تعلم كيف هو العلم، بالنسبة للعلماء.. لا يمكن أن يتوقفوا عن محاولات التطوير أبدا.

حاول (نظمي) أن يكتسب من هدوء زميله بعض الشجاعة، وهو يقول:

- ولم يكن هناك بأس من التطوير، في الشكل والأداء، وحتى في الهيئة شبه البشرية.. وأذكر أنه في عام 2051م، صار من العسير تمييز الآلي عن البشري، إلا في انعدام مشاعره.

ابتسم (فاضل) وهو يقول:

- هذا ما دفع الدكتور (عابدين) إلى ابتكار تلك الشريحة الفذة، التي أطلق عليها اسم (فيلوترونيك)، والتي زودت برنامج الآليين بمشاعر شبه آدمية، وقدرة على تقييم الأمور، من منظور عقلاني وعاطفي في آن واحد، وخاصة بعد حالة (نيرمين)، التي قتلها أحد الآليين من باب الخطأ، عندما تصور أنها تمثل خطرا على البشر.

جلس (نظمي) على أحد المقاعد، قائلا:

- ألم يكن ينبغي أن يتوقف التطوير عند هذا الحد؟!

ابتسم (فاضل) ابتسامة باهتة، وهو يغمغم:

- إنهم العلماء.

تنامى إلى مسامعهما صوت قذيفة ليزر قوية، فانكمش (نظمي) ذعرا، في حين بدا (فاضل) أكثر هدوءا منه، وهو يقول:

- من الواضح أن المعركة محتدمة في الخارج.

هتف به (نظمي) في عصبية:

- ومن الواضح أنك لا تبالي.

رمقه (فاضل) بنظرة طويلة، وقال:

- إنه أمر نسبي.

أضاف إلى عبارته ابتسامة باهتة، ثم تابع حديثه الأول:

- شريحة (فيلوترونيك) كانت طفرة تكنولوجية مدهشة، أضاف إليها العلماء شبكة ربط جبارة، تجعل الخبرات الصناعية، التي يكتسبها أحد الآليين، تنتقل تلقائيا إلى الباقين، فيما أسموه (الذاكرة الجمعية الآلية).

دوى انفجار أخر في الخارج، فعاد (نظمي) ينكمش، هاتفا:

- كان هذا أكبر خطأ.

اكتفى (فاضل) بابتسامة، ثم تابع:

- وبين عامي 2051م و2059م، تم تطوير (فيلوترونيك) عدة مرات، حتى ظهرت (فيلوترونيك 5)، التي جعلت الآليين يتعرفون ويتعاملون، بأسلوب بشري مثالي، ومع الجلد الاصطناعي، الذي استخدم مع أجسامهم..

أجسامهم الآلية، صار من العسير أن تدرك الفارق، بينهم وبين أي بشرى عادي، كما تطورت أيضا الذاكرة الجمعية الآلية، حتى صار الآليون عباقرة، وبدأت الشركات والهيئات الخاصة تسعى إلى توظيفهم، نظرا لدقة أدائهم، وقلة شعورهم بالتعب والإجهاد، وقدرتهم على مواصلة العمل لأيام، دون توقف أو انقطاع.

هتف (نظمي) معترضا:

- وهل يبدو لك هذا منطقيًا!

بدا وكأن (فاضل) لم يعر السؤال اهتماما، وهو يواصل:

- وعندما بلغنا عام 2065م، كان الآليون يحتلون الجزء الأعظم، من قطاع الأعمال الخاص، مما تسبب في حالة من البطالة، لملايين البشر، الذين تم إحلالهم بالآليين.. ولهذا فقد خرج العاطلون في مظاهرات حاشدة، مع بداية عام 2066م؛ مطالبين بقصر وظائف الآليين على خدمات الأمن والحراسة، حتى ينفتح سوق العمل أمام البشر مرة أخرى.

غمغم (نظمي)، وهو يعبث في أزرار الكمبيوتر أمامه:

- لهم كل الحق في هذا.

مط (فاضل) شفتيه، مكملاً دون توقف

- المشكلة أن (فيلوترونيك 5) كانت متطورة إلى حد مذهل، حتى إن بعض الآلين أصابتهم حالة عجيبة، ليس لها تفسير علمي واضح لقد نسوا تماما هويتهم الحقيقية، وتصوروا أنهم بشر، واندمجوا في المجتمع باعتبارهم كذلك، حتى إن الهيئة العامية الدولية، قد رصدت ظهور بعضهم ضمن المظاهرات، التي قام بها البشر.

هز (نظمي) رأسه، مغمغما:

- مازلت أذكر هذا.

رمقه (فاضل) بنظرة هادئة، وابتسامة أكثر هدوءًا، وهو يقول:

- ولكن المشكلة الحقيقية، ظهرت مع (فيلوترونيك 6).

اعتدل (نظمي) وهو يقول في عصبية:

- هنا بدأت الكارثة.

مرة أخرى تابع (فاضل)، وكأنه لم يسمعه:

- لقد تزايدت أعداد الآليين، الذين يرفضون اعتبارهم كذلك، والذين يصرون على أنهم بشر، لهم كل الحقوق والواجبات، حتى إنهم خرجوا أيضا في مظاهرات حاشدة، يرفضون التمييز بكل صوره.

قال (نظمي) في حزم:

- وتصدى لهم البشر بكل قوة.

قال (فاضل)، مشيرا بسبابته:

- ومن هنا اندلعت الحرب.

ران عليهما معا صمت طويل، استغرق ما يزيد عن دقيقتين كاملتين، تخللتهما أصوات الانفجارات البعيدة، قبل أن يحدق (نظمي) في شاشة الكمبيوتر أمامه، ثم يهتف:

- لدى حل لإنهاء الحرب، بين البشر والآليين.

سأله (فاضل)، في اهتمام شديد:

- وكيف هذا؟!

بدأت أصابع (نظمي) في ضرب الأزرار الوهمية، في لوحة الأزرار الافتراضية أمامه، وهو يجيب:

- شبكة الذاكرة الجمعية الآلية، تربط كل عقول الآليين بعضها ببعض، وهذا يعني أنه، لو تم دس فيروس خاص، في تلك الشبكة، فستقوم بنقله إلى كل الآليين على الفور.

بدا (فاضل) قلقا، وهو يسأله:

- أي فيروس هذا؟!

أجابه، وهو يواصل عمله في حماس:

- فيروس من ابتكاري.. لا تنس أنني أحد العلماء البارزين، في هذا المضمار، وأنني ضمن الفريق، الذي شارك في تطوير تلك الشبكة، منذ سبعة أعوام.

بدا (فاضل) أكثر قلقا، وهو يسأله:

- وما الذي يمكن أن يفعله هذا الفيروس بالضبط؟!

أجابه في حزم:

- ما إن يصل إلى البرنامج الأساسي للألبين، حتى يصنع حاجز نيران، بينه وبين (فيلوترونيك 6)، ويتلف كل الذاكرة الجمعية لهم، وهكذا يعودون مجرد آلات، تأتمر بكل يأمرها به البشر.

لوح (فاضل) بيده، وهو يقول معترضا:

- ولكنك بهذا تفسد سنوات من التطور.

أجابه (نظمي) بكل الحزم:

- لو أن التطور سيقود إلى عبودية البشرية، فالأصح هو أن نوقفه بلا تردد.

انعقد حاجبا (فاضل) في شدة، وهو يقول:

- إنك لا تدرك ما تفعله.

- بل أدركه تمام الإدراك.

كان قد انتهى من كتابة برنامج ذلك الفيروس، ثم بدأ في ولوج نظام شبكة المعلومات الجمعية، فرمقه (فاضل) بنظرة شديدة القلق، قبل أن ينهض متجها نحوه، قائلا:

- هل ترى أن هذا هو السبيل الوحيد حقا؟!

أجابه، وهو يدخل بياناته الرئيسية:

- وهل ترى سبيلا سواه؟!

راقب (فاضل) ما يفعله، وهو يقول في قلق متزايد:

- العلماء يحاولون إيجاد صيغة أفضل.

قال (نظمي)، وهو ينهى إدخال البيانات:

- في كل لحظة تمضي، هناك بشرى يلقى حتفه..

تلفت (فاضل) نحوه في توتر، قبل أن يقول:

- ولكن هذا قد يؤذى أقرب الناس إليك.

هز (نظمي) رأسه نفيا في قوة، وقال:

- ليس لدى أقرباء، وأنت صديقي الوحيد العزيز، الذي أشاركه كل أسراري.

صمت (فاضل) لحظات، ثم قال في توتر:

- في هذه الحالة، هناك ما ينبغي أن أخبرك به.

التفت إليه (نظمي)، وحاول أن يبتسم، وهو يقول:

- سأستمع إلى كل ما تريد قوله، يا صديقي العزيز.

ثم التفت فجأة إلى لوحة الأزرار الافتراضية، وهو يكمل بكل الحزم والعزم:

- ولكن بعد أن أقوم بخطوة أخيرة.

مع قوله، ضغط زر الإدخال، في لوحة الأزرار الافتراضية.

وفي سرعة خرافية، انطلق فيروسه إلى الشبكة الجمعية الآلية، وصرخ (فاضل) في ارتياع:

- ماذا فعلت أيها التعس؟!

وبنفس تلك السرعة الخرافية، اخترق الفيروس مركز الشبكة، ثم انتقل منها إلى كل الآليين، في كل أنحاء العالم..

وفي لحظة واحدة، توقف عمل شريحة (فيلوترونيك 6)، في كل الأجسام الآلية..

وفي لحظة واحدة أيضا، فقدوا كل ما في أجسامهم الصناعية من مشاعر..

وعادوا مجرد آليين..

وبكل المرارة، غمغم (فاضل):

- كان ينبغي أن تستمع إلى أولا يا صديقي العزيز.. كان ينبغي أن تعرف أنك مثلهم.. آلى.

وفي آلية تامة، قال (نظمي)، بصوت آلى، أشبه ما يكون بصوت البشر.

- في خدمتك يا سيدي.

ومن عيني (فاضل)، انحدرت دمعة..

بشرية.

(تمت بحمد الله)

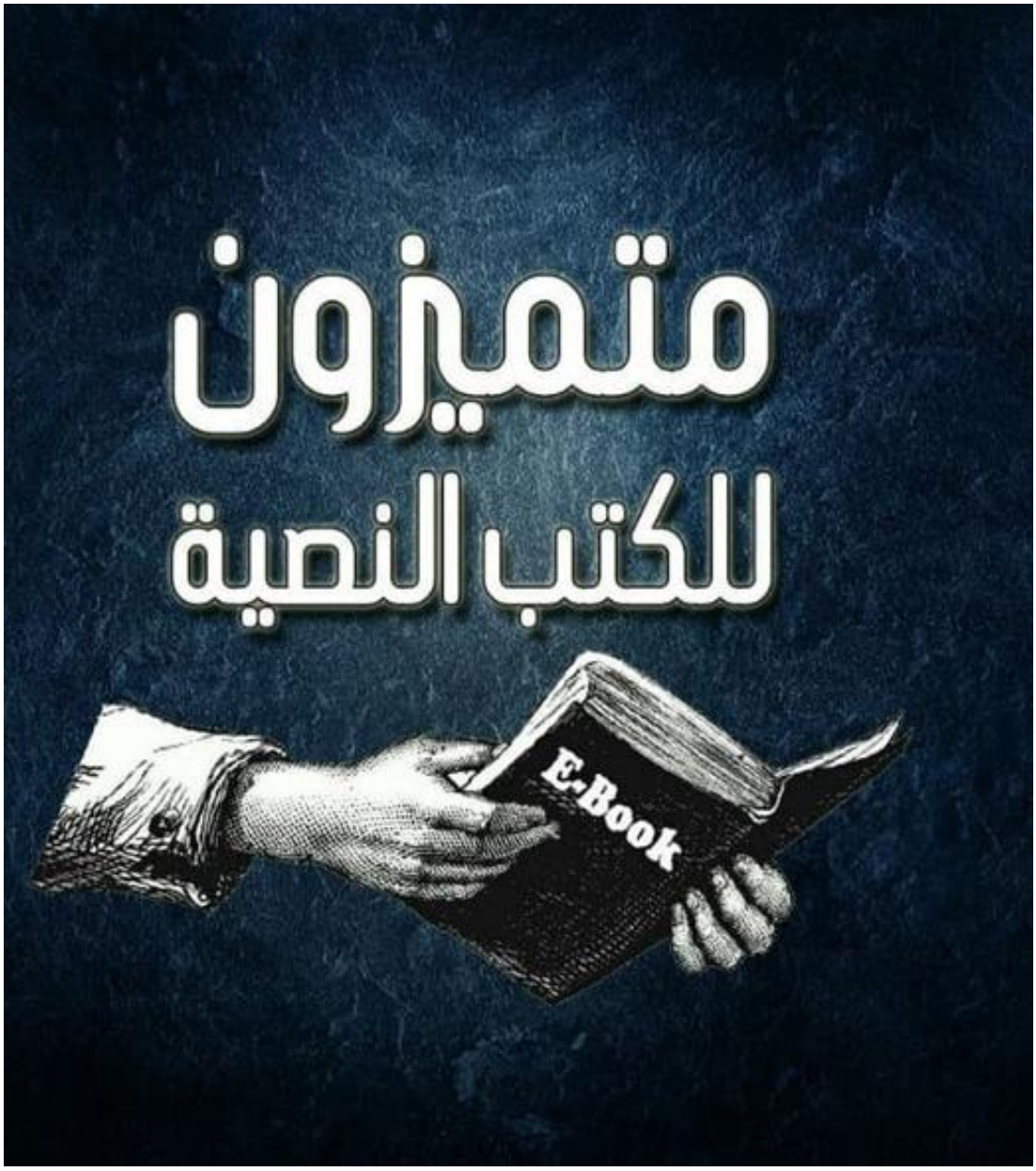

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس:

العمالقة..

القمر..

جولة أخيرة..

عيون القدر..

اللغز..

القرار..

خلود..

سوبرمان..

نظرة يا ست..

ليس في كل مرة..

صرخــة..

همس..

الذئاب..

غبار..

إبريل..

الفأر..

حلم..

ابنى..

الحجرة..
اجتماع..
الخبير..
المريض..
ذلك الكوكب..
خيال..
أليون..
الفهرس: